

جامعة النجاح الوطنية

كلية الدراسات العليا

البخل في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين

إعداد

جمال عبد الفتاح خليل صوي

إشراف

د. عبد الخالق عيسى

قدّمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس - فلسطين

2011م

البخل في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين

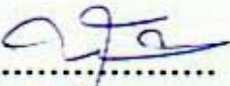
إعداد

جمال عبد الفتاح خليل صوي

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 5 / 7 / 2011م، وأجيزت .

التوقيع

أعضاء لجنة المناقشة

.....


1. د. عبد الخالق عيسى / مشرفاً ورئيساً

.....


2. د. راند عبد الرحيم / ممتحناً داخلياً

.....


3. د. حسام التميمي / ممتحناً خارجياً

.....

2011 . 10 . 17

الإهداء

إلى الذين جادوا بالروح والنفس لينيروا فجر الأمة.. إلى شهداء الأمة

إلى من كدّ وما ضنّ عليّ لأنهل من نبع العلم والمعرفة.. والدي المرحوم

إلى التي كافحت وسهرت ليلها وعانت من أجلنا.. أمي الحنون

إلى من وقفت معي في العسر واليسر.. إلى من تعلّمت منها معنى الصبر.. زوجتي الغالية

إلى إخوتي وأخواتي وأبنائهم.. إلى أبنائي وأحبتي.. براء وولاء ويحيى وأحمد وجنى وسراء

إلى كلّ من أعانني ومدّ لي يد العون.. أقدم هذا العمل.

الشكر والتقدير

أقدم بعظيم الشكر والامتنان من الدكتور عبد الخالق عيسى، الذي ارتشفت من معين علمه ما أعانني على كتابة هذه الرسالة، فكان خير مشرف وناصح ومرشد، وأسأل الله له خير الجزاء.

والشكر موصول إلى الدكتور رائد عبد الرحيم، والدكتور حسام التميمي، اللذين كانت لتوجيهاتهما وملاحظتهما عظيم الأثر في إخراج هذا العمل.

وأوجه بجزيل الشكر إلى العاملين في مكتبة بلدية طولكرم، والجامعة الأردنية، ومكتبة جامعة النجاح الوطنية، على ما قدموه لي من مساعدة دون كلل منهم، لأتمكن من استكمال مادة البحث.

جزى الله الجميع خير الجزاء

الباحث

جمال صوي

إقرار

أنا الموقع أدناه، مقدّم الرسالة التي تحمل العنوان:

"البخل في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين"

أقرّ بأنّ ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنّما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمّت

الإشارة إليه حيثما ورد، وإنّ هذه الرسالة ككل، أو أيّ جزء منها لم يقدّم من قبل لنيل أيّ درجة

أو لقب علميّ أو بحثيّ لدى أيّ مؤسسة تعليميّة أو بحثيّة أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's Name:

اسم الطالب:

Signature:

التوقيع:

Date:

التاريخ:

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
ت	الإهداء
ث	الشكر والتقدير
ج	إقرار
ح	فهرس المحتويات
د	الملخص
1	المقدمة
5	التمهيد:
5	حضور البخل في المجتمعات السابقة للعصر العباسي والتغير منه
18	أسباب البخل وكثرة الشعر فيه في العصر العباسي
25	الفصل الأول: صورة البخل في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين
26	صورة بخل الطعام وأنيته
35	صورة البخل في الاستقبال والضيافة
43	صورة بخل المال
47	الهدايا
57	الفصل الثاني: الأبعاد النفسية والاجتماعية والمكانية في البخل
58	البعد النفسي في شعر البخل
67	البعد الاجتماعي للبخلاء
81	المكان في شعر البخل
86	الفصل الثالث: الدراسة الفنية لشعر البخل
87	أولاً: البناء الفني لشعر البخل
89	ثانياً: اللغة والأسلوب
102	ثالثاً: توظيف الموروث ومظاهره
102	المثل
106	الأفكار والمعتقدات

111	الشعر
113	رابعاً: الفنون البديعية
113	الجناس
115	الطباق
116	المقابلة
120	التقسيم
121	خامساً: الأوزان والموسيقى
130	سادساً: الصورة الشعرية
130	التشبيه
136	الاستعارة
139	الكناية
143	الخاتمة
147	المصادر والمراجع
148	المصادر
154	المراجع
B	Abstract

البخل في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين

إعداد الطالب

جمال عبد الفتاح خليل صوي

إشراف

الدكتور عبد الخالق عيسى

الملخص

تتناول هذه الدراسة موضوع البخل في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وتعدّ حلقة من حلقات البحث الأدبي الذي يتناول ظاهرة انتشرت في هذين القرنين، وكان لها حضور بارز في الشعر فيهما.

وتعد هذه الدراسة مرجعا معيناً للباحث في هذا الموضوع بما حوته من مادة أدبية، وقد اعتمدت المنهج التكاملي، فهي تقوم على استقراء المادة الشعرية وجمعها من مظانها المختلفة، ثم وصفها وتحليلها ودراستها دراسة موضوعية وفنية، وانتظم عقدها في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول.

أما التمهيد، فقد استعرضت فيه حضور البخل في العصور الأدبية السابقة، ومظاهر التنفير منه في القرآن والسنة، وأشعار العباسيين ومن سبقهم، وتعرضت فيه لأسباب البخل وانتشاره في هذين القرنين.

ووقف الفصل الأول على الصورة التي رسمها الشعراء العباسيون للبخل وأدواتهم، ومنهم بخلاء الطعام، وبخلاء المال، وبخلاء الضيافة والاستقبال، وبخلاء الهدايا.

وعرض الفصل الثاني للأبعاد المحيطة والمؤثرة في البخل والشعر الذي تناوله، كالبعد

النفسي، والاجتماعي، والمكاني.

وتناول الفصل الأخير دراسة الخصائص الفنية لهذا اللون من الشعر.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على خير الناس أجمعين، معلم الناس وهاديهم إلى الطريق المستقيم، وبعد:

فقد مجد العرب على مر التاريخ خلق الكرم، وعدّوه من الخصال الأساسية في حياتهم، وانعكس ذلك في شعر شعرائهم الذين تغنّوا بهذا الخلق، وزخرت دواوينهم بمديح الجواد الكريم ودم البخيل الشحيح، فصفة البخل من الصفات التي تكسب صاحبها العار واللوم عندهم.

وقد أسهم النور القرآني والتوجيهات النبوية في الحد من انتشار هذه الآفة، وعدت من المثالب التي تؤدي إلى تفكك المجتمع وانهياره، وانعكس ذلك في سلوك الصحابة وأفراد المجتمع الإسلامي آنذاك، مما أسهم في بناء مجتمع إسلامي متكافل.

ويعدّ البخل سمة متأصلة في النفس البشرية عانت منها المجتمعات على مر العصور، إذ لم يخل مجتمع من هذا الصنف من الناس، ويلمس الدارس للشعر في العصر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين ازديادا ملحوظا في وصف الشعراء لهذه الظاهرة التي انتشرت في هذين القرنين، ويعود هذا الانتشار إلى التغير الذي حل في مظاهر الحياة بفعل انتقال الخلافة إلى بغداد، وما رافق هذا الانتقال من انقلاب في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية، حيث أضحت بغداد معلما حضاريا جذب إليه الشعراء والعلماء، ومركزا اقتصاديا أمه التجار والأثرياء، وتكالب الناس فيه على الثروة والمال، وتجمعاً للأمم وأعراق مختلفة، غدت هذا النوع من الشعر، ووظيفته للطعن في بعضها، كما فعلته الشعوبية مع العرب.

وعلى الرغم من غزارة الإنتاج الشعريّ الذي تناول البخل والبخلاء، إلا أن الدارس لا يكاد يجد دراسة تخصصت في شعر البخل، وتناولته بالتحليل في تلك الحقبة، فأكثر ما وصل كان نقلا لأخبار الأجواد والبخلاء المشهورين، ككتابي البخلاء للجاحظ، والبخلاء للبيهقي.

وتأتي هذه الدراسة لتتناول بالوصف والتحليل الشعر الذي عرض للبخل والبخلاء في العصر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وقد انتظم عقدها في تمهيد وثلاثة فصول. أما التمهيد، فقد تناول حضور البخل في المجتمعات التي سبقت العصر العباسي، وعرض لآيات كريمة وأحاديث نبوية وشعر جاهلي وإسلامي وأموي وعباسي نفر من البخل ورسم له صورة بشعة، وتناول الأسباب التي أدت لانتشار البخل وغزارة الشعر فيه.

أما الفصل الأول، فعرض لصورة البخلاء في الشعر العباسي، وظهرت تلك الصورة التي رسمها الشعراء في قوالب إبداعية متنوعة، فمنها ما عرض لصورة بخيل الطعام وأنيته التي يستخدمها، كالقدور والمائدة والمطبخ، وكان لصورة بخيل الخبز نصيب كبير فيه؛ لكونه الغذاء الرئيس الذي لا يستغني عنه الناس جميعا، حيث غدا عند بخلائهم معلقا بالكواكب، ومحميا بالحجاب والآيات والتعاويد، وملونا بالألوان الزاهية، وتحيط به الأكاليل والدرّ.

وعرض الفصل لصورة بخيل المال الذي يخزن ماله ويقفل عليه بإحكام، ويحرسه ويذود عنه بكل ما أوتي من قوة، ويغار عليه أكثر من غيرته على عرضه، ويحلف الأيمان ويضع العلل كي لا يوجد بشيء منها.

وتناول صورة البخيل عند استقباله ضيوفه وما يقدمه لهم من طعام وشراب، ووقف على صورة الهدايا التي يقدمها البخلاء، ومنها هدايا الحيوانات، كالخروف والشاة والحمار، ومنها الملابس والأحذية وهدايا الحج.

أما **الفصل الثاني**، فقد وقف على الأبعاد النفسية للبخلاء، فعرض لتلك المشاعر الظاهرة والخفية التي تنتاب البخلاء عندما يلحظون الضيوف والمحتاجين، أو عند تناول الناس طعامهم، كالعبوس والغضب، وضرب الغلام والأولاد، والمرض والموت، والشتيمة والحرب، وغيرها من التصرفات والأعمال التي يقوم بها البخلاء.

وعرض هذا الفصل للبعد الاجتماعي للبخلاء، ووقف على الفئات الاجتماعية للبخلاء في شعر الشعراء، كالمسؤولين والأثرياء، والأصدقاء والأقارب والجيران، والشعراء والعلماء وأصحاب الكلام، والأقوام والجماعات، وغيرهم من عامة الناس.

وتناول الفصل المكان وأثره في البخل وانتشار الشعر فيه، فعرض لأماكن تواجد الشعراء الذين تناولوا هذا المضمون، وبدت بغداد الحاضنة له بفعل عوامل متعددة، فكانت مركزاً لأشهر الشعراء الذين تناولوه، ولم تخل الأمصار الأخرى منه، ولكن بوتيرة أقل؛ نظراً لبعدها عن مركز الخلافة حيث يجتمع الشعراء والأثرياء.

أما **الفصل الثالث**، فقد وقف على السمات الفنية للنصوص الشعرية التي تناولت موضوع البخل، فعرضت لبناء النص الشعري فيه، من حيث المقدمة التقليدية، والنظم في المقطعات، والوحدة الموضوعية، وتناول خصائص لغة شعر البخل، والأساليب التي استعملها ووظفها الشعراء لخدمة المعنى، كاستعمال الألفاظ الأجنبية التي دخلت بفعل الامتزاج الحضاري

والعرقى، والافتباس من الآيات الكريمة، وتوظيف الأمثال والمعتقدات والعادات الاجتماعية، والأساطير والخرافات، ومصطلحات البيئات الكلامية للتدليل على بخل بخلاتهم.

وتناول الأوزان والقوافي التي أكثر الشعراء من استخدامها في شعرهم، ووقف على مظاهر موسيقية أسهمت في جمال هذا النوع من الشعر وخفته، كالتصريح ولزوم ما لا يلزم، وتكرار الحروف والكلمات والعبارات.

وعرض الفصل لأساليب بدعية زينت شعرهم، وأدت دورا مهما في توكيد الدلالة، وتوضيح المراد والغاية، كالجناس، والطباق، والمقابلة، والتقسيم.

وختم الفصل بالوقوف على الصورة الشعرية في هذا اللون من الشعر، فعرض للتشبيه والاستعارة والكناية، وبين أهمية كل منها في الدلالة والتصوير.

والخاتمة، عرضت أبرز النتائج وما توصل إليها الباحث في هذه الدراسة.

وقد بنيت الدراسة معتمدة على المنهج التكاملي، حيث قامت على لم شتات الأشعار التي تناولت البخل في القرنين الثاني والثالث الهجريين من منابعها الأصيلة، والوقوف على صورها وأبعادها ودراستها دراسة فنية.

وأخيرا أسأل الله أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به كلّ مرید، وأرجوه التوفيق والسداد، فإن أصبت فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي.

التمهيد

حضور البخل في المجتمعات السابقة للعصر العباسي والتنفير منه

البخل سمة متأصلة في النفس البشرية؛ ذلك لأن الإنسان خلق محتاجاً، والمحتاج يحرص على ما يدفع به الحاجة، وأن يمسكه لنفسه، يقول تعالى: **يَا بَخِيلٌ إِنَّا جَعَلْنَاكَ إِحْسَابًا عَلَيْهِ لِمَا كَسَبَتْ يَدَاكَ وَأنتَ بَخِيلٌ فَاذْكُرْ مَا كُنتَ بَعْدَ مَا نَسِيتَ وَأنتَ مِمَّنْ يَلْمِزُ آلِمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ يَلْمِزُكَ وَاللَّهُ يَلْمِزُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** (1)، فلو ملك الإنسان من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها لبقى على الشحّ، وهذه هي الفطرة الإنسانية التي جبل عليها الإنسان.

والبخل بوصفه ظاهرة اجتماعية كانت -ولا تزال- تعدّ في عرف المجتمعات العربية والإسلامية من أرنل الصفات، وتعدّ أشدّ وقعا على النفوس من وقع الحسام المهندّ، ولذا فقد كان الكريم المعطاء مقصد المادحين من الشعراء وغيرهم من ذوي الحاجات، وكان البخل من ذوي الجاه والنزاه أكثر تعرّضا لسخط الساخطين وهجائهم، وقد زحرت دواوين الشعراء في العصر الجاهليّ وما بعده بتمجيد الكرم وذمّ البخل، فالممدوح بحر هائج ونهر دفاق وغيث منهمر، والقبيلة تفخر بأنّها موطن الكرم والسّخاء، وملاذ المحتاجين والبؤساء، وبالمقابل فإنّ البخل عار على الفرد والقبيلة، وهو سلاح حادّ يصبّه الشاعر على المهجوّ، ووسيلة فعّالة وقويّة في مواجهة الخصوم والأعداء، فالبخيل ملوم، والجواد على الرغم من ضيق حاله ممجّد يستحق المدح، يقول زهير:

إِنَّ الْبَخِيلَ مَلُومٌ حَيْثُ كَانَ وَكَانَ الْجَوَادَ عَلَى عِلَاتِهِ هَرِمٌ (2)

(1) الإسراء (100).

(2) ابن أبي سلمى، زهير: الديوان، تحقيق وشرح: كرم البستاني، بيروت، مكتبة صادر، 1953، ص129. هـرم: المقصود هرم بن سنان بن أبي حارثة المري، من بني مرة بن عوف بن سعد بن ديار.

ويقول طرفة بن العبد يذمّ البخيل:

أرى قَبْرَ نَحَّامٍ بِخَيْلٍ بِمَالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي الْبَطَالَةِ مُفْسِدٍ⁽¹⁾

فطرفة لا يرى فرقا بين قبر البخيل الذي ضنّ على نفسه في حياته، وقبر الضال المبذر

لماله في دنياه.

فالبخل في المجتمع الجاهليّ عار وأمر شنيع ومرفوض، ومن يتسم به يكن عرضة

للاتّهام والنقص، لذا عدّ بيت الأعشى الآتي في الهجاء -وهو الذي يشهرّ فيه بالبخل- من

أفضل ما قيل في الهجاء:

تَبَيَّتُونَ فِي الْمَشْتَى مِلاءً بَطُونَكُمْ وَجَارَاتِكُمْ غَرْتِي بَيِّنَ خَمَائِصًا⁽²⁾

ويسخر الأعشى من ذلك البخيل الذي يفزع عندما يرى زائرا يحلّ عليه، يقول:

إِذَا زَارَهُ يَوْمًا صَدِيقٌ كَأَنَّمَا يَرَى أَسَدًا فِي بَيْتِهِ وَأَسَاوِدًا⁽³⁾

فهو لفزعه منه يراه كالأسد أو كالأفعى يريد الانقضاض عليه وافتراسه.

ومع بزوغ فجر الإسلام، وما ضمه القرآن الكريم والسنة النبويّة من آيات وأحاديث

تنفر من البخل وتحث على الجود، بدأت مظاهر هذه الآفة بالانحسار، ومن الآيات التي نفرت

من البخل وأهله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلَاقُوا السُّبْحَةَ حَتَّى تُبْسِطُوا عَلَيْهَا سَلْتِمَكُمْ وَلَا تَكُونُوا لِلسُّبْحَةِ كَآلِ الْوَالِدِ الَّذِي إِذَا لَقِيَ الْوَالِدَ كَفَّ يَدَيْهِ وَأَعْرَضَ وَجْهَهُ لَلْغَدِ وَنَحْوَهُ﴾

(1) ابن العبد، طرفة: الديوان، تحقيق: فوزي عطوي، بيروت، دار صعب، 1980، ص48. نحام: بخيل إذا طُلبت إليه حاجة كثر سؤاله عندها. ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب، بيروت، دار صادر، 1955، مادة نجم.

(2) الأعشى، ميمون: الديوان، شرح وتعليق محمد حسين، الجماميز، مكتبة الآداب، 1950، ص149. غرثي وخمائصا: جوعى. لسان العرب، مادة غرث وخمص.

(3) المصدر السابق، ص65. الأساودان: الحية والعقرب. لسان العرب، مادة سود.

من النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، وَلِجَاهِلٍ سَخِيٍّ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ⁽¹⁾، وَالْحَدِيثُ يَحْمِلُ مَفَاضِلَةً عَظِيمَةً تُؤَكِّدُ مَعْنَى خَطِيرًا، وَهُوَ أَنَّ السَّخِيَّ الْجَاهِلَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْعَابِدِ الْبَخِيلِ، وَعَدَّ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- الْبِخْلَ صِفَةً لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ فِي الْمُؤْمِنِ، يَقُولُ: "خَصَلْتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ: الْبِخْلُ وَسُوءُ الْخَلْقِ"⁽²⁾، لِذَا كَانَ الرَّسُولُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَدْوَةً فِي كَرَمِهِ وَجُودِهِ، تَأْسَى بِهِ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ فَكَانُوا مِثَالًا لِلِسَخَاءِ وَالْبَذْلِ.

وَقَدْ انْعَكَسَتْ هَذِهِ التَّوْجِيهَاتُ الرَّبَّانِيَّةُ وَالنَّبَوِيَّةُ عَلَى شُعْرَاءِ الصَّحَابَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مَنْفَرًا مِنَ الْبِخْلِ وَالْمِطْلِ فِي الْمَوَاعِيدِ، وَعَادَاً ذَلِكَ شَرَّ الْأَفَاتِ وَأَعْظَمُهَا:

إِذَا اجْتَمَعَ الْأَفَاتُ فَالْبُخْلُ شَرُّهَا وَشَرُّ مِنَ الْبُخْلِ الْمَوَاعِيدُ وَالْمِطْلُ⁽³⁾

وَقَوْلُهُ أَيْضًا يَدْعُو إِلَى الْبَذْلِ وَيُنْهَى عَنِ الْبِخْلِ:

وَإِنْ تَكُنِ الْأَرْزَاقُ حَظًّا وَقِسْمَةً فَقَلَّةُ حِرْصِ الْمَرْءِ مِنَ الْكَسْبِ أَجْمَلُ

وَإِنْ تَكُنِ الْأَمْوَالُ لِلتَّرْكِ جَمْعُهَا فَمَا بَالُ مَتْرُوكٍ بِهِ الْحُرُّ يَبْخَلُ⁽⁴⁾

وَهُوَ بِذَلِكَ يَعْجَبُ مِنَ أَوْلَئِكَ الصَّنْفِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْأَرْزَاقَ وَالنَّعْمَ قَدْرٌ مَقْسُومٌ مِنَ اللَّهِ، وَهِيَ لَا بَدَّ مَتْرُوكَةٌ مِنْ صَاحِبِهَا عِنْدَ مَوْتِهِ، فَلِمَاذَا يَبْخَلُ بِهَا الْإِنْسَانُ وَيَمْنَعُهَا عَنِ الْمَحْتَاجِينَ؟

(1) التبريزي، محمد: مشكاة المصابيح، تحقيق: محمد الألباني، ط3، بيروت، المكتب الإسلامي، 1985، 585/1.

(2) الترمذي، محمد: سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (د.ت)، 343/4.

(3) ابن أبي طالب، علي: الديوان، شرح عبد الرحمن المصطوي، ط1، بيروت، دار المعرفة، ص128. المطل: التسوية في الوفاء بالوعد. لسان العرب، مادة مطل.

(4) ابن أبي طالب: الديوان، ص129.

وعبر علي رضي الله عنه - عن موقفه من البخلاء في قوله:

وَكَمْ رَأَيْتَا مِنْ ذَوِي ثَرْوَةٍ لَمْ يُقْبَلُوا بِالشُّكْرِ إِقْبَالَهَا

تَاهُوا عَلَى الدُّنْيَا بِأَمْوَالِهِمْ وَقَيَّدُوا بِالْبُخْلِ أَقْفَالَهَا⁽¹⁾

فلم يشكروا الله على نعمه التي وهبهم إياها، بل بخلوا على غيرهم فأغلقوا أبواب الخير عن مستحقيها، وهو بذلك يتمثل خلق الإسلام وقيمه التي تدعو إلى البذل والشكر لله على نعمه.

وفي العصر الأموي تصدى الشعراء للبخل والباخلين، ومن ذلك قول صخر ابن

أعبي⁽²⁾ في الحطيئة:

أَلَا قَبَّحَ اللهُ الحُطَيْئَةَ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ ضَيْفٍ ضَافَهُ فَهُوَ سَالِحٌ⁽³⁾

دَفَعْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْنُقُ كَلْبَهُ أَلَا كُلُّ كَلْبٍ - لَا أَبَا لَكَ - نَابِحٌ

بَكَتَ عَلَى مَذْقِ خَبِيثِ قَرِيَّتِهِ أَلَا كُلُّ عَبْسِيٍّ عَلَى الزَّادِ شَائِحٌ⁽⁴⁾

فهو يخنق كلبه كي لا ينبج فيحضر الضيوف لبيته، ويكي على الطعام البسيط الذي يقدمه لضيوفه مكرها.

ومنه قول الأخطل يهجو قوم جرير:

(1) علي: الديوان، ص 127.

(2) صخر بن أعبي الأسدي، شاعر أموي، كانت له مع الحطيئة مساجلات شعرية، وقال هذه الأبيات ردًا على قول الحطيئة. الأصبهاني، أبو الفرج: الأغانى، شرح علي مهنا، بيروت، دار الفكر، (د.ت)، 2 | 165.

(3) السليح: النجو، إخراج ما في البطن بالغايط. لسان العرب، مادة سلح.

(4) الأصبهاني: الأغانى، 2/165. المذق: اللبن الممزوج بالماء.

شائح: حذر. لسان العرب، مادة مذق وشيح.

قَوْمٌ إِذَا اسْتَبَّحَ الْأَضْيَافُ كَلَّبَهُمْ قَالُوا لِأُمَّهُمْ بُولِي عَلَى النَّارِ
فَقَمَّعَ الْبَوْلَ بُخْلًا أَنْ تَجُودَ بِهِ وَمَا تَبُولُ لَهُمْ إِلَّا بِمِقْدَارٍ⁽¹⁾

تحمل هذه الأبيات وصفا ساخرا لأفعال وأحوال وتصرفات أبناء القبيلة حين يتناولون طعامهم، فهم حين يسمعون صوت كلابهم تتبح عند اقتراب الضيوف، يسارعون للطلب إلى نساءهم أن تبول على النيران لتطفئها، والنار مظهر من مظاهر الكرم عند العرب، ومما يزيد من قوة التصوير والمبالغة في وصف بخلهم، أن نساءهم لا تبول إلا بمقدار ما يطفى النار؛ حرصا على بولها، وهي صورة ساخرة لبني تغلب أحسن الأخطل في رسمها.

ومن ذلك أيضا قول المقنع الكندي⁽²⁾ يعرض بالبخل والبخلاء:

إِنِّي أَحْرَضُ أَهْلَ الْبُخْلِ كُلَّهُمْ لَوْ كَانَ يَنْفَعُ أَهْلَ الْبُخْلِ تَحْرِيزِي
وَأَمَّا يُرْفَعُ مَنْ لَوْلَا دَرَاهِمُهُ أَمْسَى يُقَلِّبُ فِينَا طَرْفَ مَخْفُوضِ
لَنْ تَخْرُجَ الْبَيْضُ عَفْوًا مِنْ أَكْفِهِمْ إِلَا عَلَى وَجَعٍ مِنْهُمْ وَتَمْرِيضِ
كَأَنَّهَا مِنْ جُلُودِ الْبَاخِلِينَ بِهَا عِنْدَ النَّوَائِبِ تُحْذَى بِالْمَقَارِيضِ⁽³⁾

(1) الأخطل، غياث بن غوث: الديوان، تحقيق مهدي ناصر الدين، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، 1994، ص 166.
(2) محمد بن عميرة الكندي، (ت نحو 70هـ)، ولد في حضرموت، كان مقنعا؛ لذا لُقّب بالمقنع؛ لأن القناع كان من صفات الرؤساء، وقيل أنه كان جميلا، وكان مقلا جوادا كريما حتى أتلّف كل ما خلفه أبوه من مال. انظر الصفدي، صلاح الدين: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 2000، 149-148/3. وانظر الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط15، بيروت، دار العلم للملايين، 2002، 320-319/6.
(3) الأصبهاني: الأغاني، 115، 114/17. تحذى: تقطع، المقاريض: واحدها مقراض وهو ما يقطع به. لسان العرب، مادة مادة حذو وقرض.

فالأموال ترفع أصحابها الذين لا يبخلون بها على السائلين، لا كأولئك الذين يخزنونها ولا تخرج منهم إلا وهم يتألمون، ويصور خروجها منهم كقطع جلودهم وأجسادهم، وهي مشاعر نفسية يعاني منها البخلاء في كل عصر.

وكان البخل -ولا يزال- عنواناً للنقد من قبل العلماء على مرّ العصور، ووردت في ذمّه أقوال كثيرة، منها قول أبي الحسن بن عليّ رضي الله عنه: "البخل جامع للمساوئ والعيوب، وقاطع للمودّات من القلوب"⁽¹⁾، وهو بذلك يشير إلى آثار البخل على البخيل نفسه وعلى من حوله، حوله، فبسببه يقع الجفاء بين الناس، وتتقطع الأواصر والعلاقات، ومنه قول الحسن البصريّ مبينا جهل البخيل: "لم أر أشقى بماله من البخيل، لأنه في الدنّيا يهتمّ بجمعه، وفي الآخرة يحاسب على منعه، غير آمن في الدنيا من همّه، ولا ناج في الآخرة من إثمّه، عيشه في الدنّيا عيش الفقراء، وحسابه في الآخرة من الأغنياء"⁽²⁾، فالبخيل محروم من ماله في الدنيا، لأنه يبخل بها على نفسه، ويمنعها عن غيره، فيعيش حياة البؤساء، فلا هو أفاد منها في حياته، ولا أنفق منها ليؤجر بعد مماته، وكان أبو حنيفة يرفض شهادة البخيل، ويحتجّ لذلك بأنّ البخيل يأخذ فوق حقّه مخافة أن يغبنه الناس بسبب بخله، ومن كان هكذا شأنه لا يكون مأموناً⁽³⁾.

وفي العصر العباسي، ومع تعقد الحياة الاجتماعية، وظهور من ينافح عن البخل والبخلاء، تصدى بعض الشعراء لهذه الفئة من الناس، ونفّروا بأشعارهم من البخل، ومن ذلك قول بشرّ:

(1) النويري، شهاب الدين أحمد: نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1986، 295/3.

(2) المصدر السابق، 294/3.

(3) المصدر السابق، 294/3.

خَلِيلِي إِنَّ الْعُسْرَ سَوْفَ يَفِيقُ وَإِنَّ يَسَارًا فِي غَدٍ لَخَالِقُ⁽¹⁾
لَقَدْ كُنْتُ لَا أَرْضَى بِأَدْنَى مَعِيشَةٍ وَلَا يَشُوتَكِي بَخْلًا عَلَيَّ رَفِيقُ
خَلِيلِي إِنَّ الْمَالَ لَيْسَ بِنَافِعٍ إِذَا لَمْ يَنْلُ مِنْهُ أَخٌ وَصَدِيقُ⁽²⁾

فالمال عنده وجد لينفقه المرء على الصديق والأخ ومن يحتاجه.

وقال في أبيات أخرى مصورًا المال كسحابة اجتمعت ثم تفرقت كالثوب البالي، داعيًا

إلى عدم تخزين المال بل إنفاقه:

وَمَا الْمَالُ إِلَّا مِثْلُ ظِلٍّ سَحَابَةٍ غَدَتْ طَبَقًا ثُمَّ أَنْجَلَتْ قِطْعًا بُرْدًا
فَقُلْ لِلَّذِي يُبْقِي لِمَنْ لَيْسَ بِأَقْبِيَا تُصِيبُ وَلَمْ تَعْقِبْ نَجَاحًا وَلَا رُشْدًا⁽³⁾

ويدعو بشار إلى الجود والإنفاق، يقول:

أَنْفِقْ الْمَالَ وَلَا تَشْقَ بِهِ خَيْرُ دِينَارِيكَ دِينَارٌ نَفَقُ⁽⁴⁾

فأفضل مال المرء ما أنفقه، ذلك أنه يكتب له أجره.

وحملت أبيات أبي إسحق الموصلي هذا المعنى في قوله:

وَأَمْرَةٌ بِالْبُخْلِ قُلْتُ لَهَا أَقْصِرِي فَذَلِكَ شَيْءٌ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

(1) الخليلق: الجدير بالأمر. لسان العرب، مادة خلق.

(2) ابن برد، بشار: الديوان، شرح وتقديم مهدي ناصر الدين، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993، ص562.

(3) بشار: الديوان، ص375-376. تصيب: تنال وتأخذ. لسان العرب، مادة صوب.

(4) بشار: الديوان، ص564.

أرى النَّاسَ خَلَّانَ الْجَوَادِ وَلَا أَرَى
بَخِيلًا لَهُ فِي الْعَالَمِينَ خَائِلٌ
وَإِنِّي رَأَيْتُ الْبُخْلَ يُزْرِي بِأَهْلِهِ
فَأَكْرَمْتُ نَفْسِي أَنْ يُقَالَ بَخِيلٌ
وَمِنْ خَيْرِ حَالَاتِ الْفَتَى لَوْ عَلِمْتَهُ
إِذَا نَالَ شَيْئًا أَنْ يَكُونَ يُبَيْلٌ⁽¹⁾

فهو يرد على من طلب إليه أن يكون بخيلا بأبيات تحمل معاني كبيرة، فالبخل يقود صاحبه إلى الذل والعار، والجود يجعل صاحبه قريبا ومحبوبا من الناس، لذا فهو يبرئ نفسه من عار البخل.

ويرى الإمام الشافعي في أبيات له أن البخيل لا يرجى منه الجود، كالنار لا يرجى منها الماء الذي يروي العطشان، وأن الرزق مكتوب لا ينفع به التأنى أو العناء، يقول:

وَلَا تَرْجُ السَّمَاخَةَ مِنْ بَخِيلٍ
فَمَا فِي النَّارِ لِلظُّمآنِ نَارٌ
وَرِزْقُكَ لَيْسَ يُنْقِصُهُ التَّأْنِي
وَلَيْسَ يَزِيدُ فِي الرِّزْقِ الْعَنَاءُ⁽²⁾

ويرى الشافعي أن المصيبة الكبرى عنده، أن يرد سائلا جاء يطلب حاجته منه، يقول:
إِنَّ اعْتِدَارِي إِلَى مَنْ جَاءَ يَسْأَلُنِي
مَا لَيْسَ عِنْدِي لِمَنْ إِحْدَى الْمُصِيبَاتِ⁽³⁾

وعدّ العطوي⁽⁴⁾ العار في البخل والغنى، لا في الفقر، يقول:

(1) البغدادي، أحمد بن علي البخلاء، تحقيق أحمد فريد المزيدي، ط1، 1964، بيروت، دار الكتب العلمية، 1964، ص61.

(2) الشافعي، محمد بن إدريس: ديوان الإمام الشافعي، جمع وتعليق محمد الزعبي، ط3، بيروت، دار الجيل، 1974، ص16.

(3) المصدر السابق، ص28.

(4) محمد بن عبد الرحمن العطوي بن أبي عطية، كان مولى لبني كنانة، بصري المولد والمنشأ، كان بارعا في علم الكلام، معتزلي المذهب، توفي عام 230هـ. انظر ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين، وفيات الأعيان وأنباء أبناء

ما الْفَقْرُ عَارٌ إِلَّا مَا الْ عَارُ الثَّرَا وَالْبُخْلُ⁽¹⁾

وهو مذهب أبي العتاهية⁽²⁾ في الغنى والفقير، يقول معبرا عن ذلك:

وَلَيْسَ الْغِنَى إِلَّا غِنَى زَيْنَ الْفَتَى عَشِيَّةَ يَقْرِي أَوْ غَدَاةَ يُنِيلُ

وَلَمْ يَفْقَرْ يَوْمًا وَإِنْ كَانَ مُعَدَّمًا جَوَادٌ وَلَمْ يَسْتَعْنِ قَطُّ بِخَيْلٍ⁽³⁾

فهو يرى أن الغني الحقيقي هو الذي يقري الضيف ويساعد المحتاجين، فالجواد لا يفتقر

بسبب جوده وإنفاقه لأمواله، والبخيل لا يستغني ببخله.

ويتفق ابن الرومي مع سابقه في هذا المذهب، يقول مؤكدا هذا المعنى:

وَمَا الْفَقْرُ عَيْبًا مَا تَجَمَّلَ أَهْلُهُ وَلَمْ يَسْأَلُوا إِلَّا مُدَاوَاةَ دَائِهِ

وَلَا عَيْبَ إِلَّا عَيْبُ مَنْ يَمْلِكُ الْغِنَى وَيَمْنَعُ أَهْلَ الْفَقْرِ فَضْلَ ثَرَائِهِ

عَجِبْتُ لِعَيْبِ الْعَائِبِينَ فَقِيرَهُمْ بِأَمْرِ قَضَاهُ رَبُّهُ مِنْ سَمَائِهِ

وَتَرَكَهُمْ عَيْبَ الْغَنِيِّ بِبُخْلِهِ وَلُؤْمِ مَسَاعِيهِ وَسُوءِ بَلَائِهِ

إِذَا حُرِمَ الْفَانِي مِنَ الْخَيْرِ حَظُّهُ فَلِمَ يَفْرَحُ الْبَاقِي بِطَوْلِ بَقَائِهِ⁽⁴⁾

الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1971، 39/6. الصفدي: الوافي بالوفيات، 187/3. الزركلي: الأعلام، 189/6.

(1) الأصفهاني، حسين: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعر والشعراء، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1980، 514/2.

(2) إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، من قبيلة عنزة، ولد في عين التمر سنة 130هـ، عمل بائعا للجرار، نظم الشعر ونبغ فيه، مدح المهدي والهادي والرشيد، أكثر شعره في الزهد والمديح، توفي سنة 213هـ. انظر الصفدي: الوافي بالوفيات، 111/9.

(3) أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم: الديوان، بيروت، دار بيروت، 1986، ص356.

(4) ابن الرومي، علي بن عباس: ديوان ابن الرومي، شرح أحمد بسج، ط1، بيروت، دار الكتب العالمية، 1994، 1/74-73. الفاني: الشيخ كبير السن. لسان العرب، مادة فني.

فالعيب عند ابن الرومي ليس في كون الإنسان فقيراً، بل العيب في الغني الذي يمسك ماله عن المحتاجين العفاة، لذا فهو يعجب من أولئك الذين يعيبون على الفقير فقره، على الرغم من أن الغنى والفقر بيد الله، ولكنهم لا يعيبون على الغني بخله ولؤمه، ومنعه العطاء والخير من فضل ماله لمن جاءه طالبا حاجته من الفقراء والمعوزين.

وحتّ الشاعر لحظة على الإنفاق والابتعاد عن الشحّ والبخل، يقول:

أَنْفَقْ وَلَا تَخْشَ إِقْلَالَ فَقَدْ قُسِمَتْ بَيْنَ الْعِيَادِ مَعَ الْأَجَالِ أَرْزَاقُ
لَا يَنْفَعُ الْبُخْلُ مَعَ دُنْيَا مُؤَلِّيَةٍ وَلَا يَضُرُّ مَعَ الْإِقْبَالِ إِنْفَاقُ⁽¹⁾

إذ ما فائدة التقتير وحياة المرء إلى زوال؟

ويدعو الشاعر أحمد بن فنن إلى البعد عن البخل والبخلاء، يقول:

يُحْرَمُ الْمَاجِدُ الْمُجِدَّ وَقَدْ يُرَى زَقَ قَوْمٌ وَإِنَّهُمْ لَلنَّامِ
فَدَعَ الْحَرِصَ وَالْحَرِيصَ وَلَا تَمَّ تَهِنَ النَّفْسَ إِنَّهَا أَقْسَامُ⁽²⁾

ويوجه منصور الفقيه النصيحة لمن جاءه بخيل يطلب الزّواج من ابنته، بأن يمتنع عن

تزويجه لها حتى لو كانت زنجية مشوّهة، وإن كان هذا البخيل يملك الجاه والمجد، يقول:

إِذَا كَانَ فِي بُخْلِهِ مُحْكَمًا وَحَلَّ مِنَ الْمَجْدِ أَعْلَى الدَّرَجِ
وَجَاءَكَ يَخْطِبُ زَنْجِيَّةً مُشَوَّهَةَ الْخَلْقِ فِيهَا هَوَجُ

(1) البرمكي، لحظة: ديوان لحظة البرمكي، تحقيق جان توما، ط1، بيروت، دار صادر، 1996، ص195.

(2) التوحيدي، أبو حيان: البصائر والذخائر، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، ط1، دمشق، مكتبة أطلس، 1964، 713/2.

فَلَا تَحْفَلْنَ بِهٖ خَاطِبَا وَلَا تَفْرَحَنَّ وَلَا تَبْتَهِجْ⁽¹⁾

ويعدّ الخليل بن أحمد البخل من أقبح صفات المرء، وبخاصّة إذا كان من إنسان يملك الثروة والمال، يقول:

مَا أَقْبَحَ النَّسْكَ بِسَائِلِ وَأَقْبَحَ الْبُخْلَ بِذِي الْمَالِ
وَالْحِرْصُ مِنْ شَرِّ أَدَاةِ الْفَتَى لَا خَيْرَ فِي الْحِرْصِ عَلَى حَالِ
وَأَقْبَحَ الثَّرْوَةَ إِنْ لَمْ تَكُنْ عِنْدَ أَخِي جُودَ وَإِفْضَالِ⁽²⁾

ويرى ابن المعتز أنّ الحياة فانية، وأن تخزين المال لا يجدي، يقول:

سَابِقُ إِلَى مَالِكَ وَرَأْتَهُ مَا الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا بِلَبَّاتِ
كَمْ صَامَتِ يَخْنُقُ أَكْيَاسَهُ قَدْ صَاحَ فِي مِيزَانِ وَرَأْتِ⁽³⁾

فمالك الذي تحزنه في أكياسك، حارما نفسك منه، هو من نصيب الورثة الذين سيبتعمون فيه، بينما أنت تعاني وحشة القبر.

ويؤكد هذا المعنى محمود الوراق⁽¹⁾ حين ينكر على البخيل أن يمسك أمواله ويبخل بها

على نفسه وأهله، ويحتفظ بها لورثته، يقول:

(1) القرطبي، يوسف بن عبد الله: بهجة المجالس، تحقيق محمد مرسي، ط2، بيروت دار الكتب العلمية، 1981، 637/1.

637/1.

(2) البغدادي: البخل، ص66-67.

(3) البغدادي: البخل، ص167.

تَجُودُ بِالْمَالِ عَلَى وَاِرْثٍ وَلَا تَرَى أَهْلًا لَهُ نَفْسًا كَا
قَدَّمَ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ مَنْ جَادَ وَسَوَّءَ الظَّنِّ مَنْ أَمْسَكَ(2)

فإن الله يحب الجواد ويبغض البخيل الممسك.

وينكر ديك الجن(3) أن ينتسب لأخيه وأقاربه إذا وجد في أحدهم بخلا، يقول:

وَإِنِّي بَرِيءٌ مِنْ أَخِي وَانْتِسَابِهِ إِلَيَّ إِذَا أَلْفَيْتُ فِي طَبَعِهِ بُخْلًا
فَإِنْ لَمْ تَكُنْ بِالطَّبَعِ نَفْسِي كَرِيمَةً وَإِنْ كَرُمَ الْأَبَاءُ لَمْ أَرَهُ فَضْلًا(4)

ويدعو في أبيات أخرى إلى إطلاق اليد، ذلك أن الغني البخيل الذي لا يعرف كيف

يسعد بماله وينفقها في الخير، لا يعد هذا المال ماله، ويدعوه إلى الإنفاق والبذل، فالحال لا بدّ

ستتبدّل مع مرور الأيام، يقول:

يَا ذَا الْغِنَى وَالْبُخْلِ مَالِكَ مِنْ غِنَى وَكَذَلِكَ يَا ذَا الْمَالِ مَا لَكَ مَالٌ

أَطْلُقُ يَدَيْكَ فَإِنَّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَا يُرْدِيهِمَا وَرَاءَ حَالِكَ حَالٌ(5)

(1) محمود بن الحسن الوراق، شاعر أكثر شعره في الحكم والمواعظ، مات في خلافة المعتصم في حدود 230هـ. انظر

الصفدي: الوافي بالوفيات، 103-100/25.

(2) الصفدي: الوافي بالوفيات، 103/25.

(3) عبد السلام بن رغبان عبد السلام الكلبي، من شعراء بني عباس، أصله من سلمية، وكان متشيعا ظريفا ماجنا، ولد سنة

161هـ، توفي في حدود سنة 236هـ، كان أشقر، أزرق العينين، ويصغ حاجبيه بالزنجار وذقنه بالحناء، ولذلك لقب

بديك الجن. انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، 185-154/3. الصفدي: الوافي بالوفيات، 257/18.

(4) ديك الجن، عبد السلام الكلبي: الديوان، تحقيق أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري، بيروت، دار الثقافة، 1985،

ص107.

(5) ديك الجن: الديوان، ص108.

ويحذر محمد بن بشير الرياشي⁽¹⁾ من المنع وإمساك الأموال والطعام عن الآخرين، مبينا

مبينا أنّ ذلك لن يقود المرء إلى الغنى، بل إلى الفقر، يقول:

كَمْ مَانِعِ نَفْسَهُ لَذَائِهَا حَذْرًا لِلْفَقْرِ لَيْسَ لَهُ مِنْ مَالِهِ ذُخْرٌ
إِنْ كَانَ إِمْسَاكُهُ لِلْفَقْرِ يَحْذَرُهُ فَقَدْ تَعَجَّلَ فَقْرًا قَبْلَ يَفْتَقَرِ⁽²⁾

من كل ما تقدم يمكن القول إنّ المجتمعات على مرّ العصور ظهر فيها الأجواد والبخلاء

كسنة من سنن الله في الكون، فانبثرت هذه المجتمعات ترفع الجواد وتعلي شأنه، وتتصدى للبخل وأهله، وتنفّر منه، وقد كان للقرآن الكريم والتوجيهات النبوية والشعر العربي أثر كبير في ذلك.

أسباب البخل وكثرة الشعر فيه في العصر العباسي

يعد البخل -كما مرّ آنفاً- سجية متأصلة في النفس الإنسانية، ولعل أقوى دوافعه الخوف

من الفقر والحاجة، والخوف هذا دفعهم لتمجيد الدراهم والأموال، والحرص على خزنها، فغدا

المال في هذا العصر مقصدا يتوسل الناس إليه، ومطلباً يسعون للحصول عليه بشتى الوسائل،

بل ولا يبالي الكثير منهم بجمعه وتخزينه حتّى ولو كان جمعهم له بطرق محرّمة أو خبيثة،

وذلك بفعل تعقّد الحياة الاجتماعيّة، وظهور طبقة الأغنياء التي تعدّ أكثر الطبقات حرصاً على

الأموال والمقتنيات، ونشطت هذه الفئة في البصرة وبغداد بخاصّة⁽³⁾، يقول بشار مؤكداً هذا

المعنى ومقارنا بين حال الغني والفقير:

والمالُ عَزْزٌ فَأَكْثَرُ مِنْ طَرَائِفِهِ وَإِنْ عَدِمْتَ فَطَبَّ نَفْسًا بِتَقْنِيدِ

(1) محمد بن بشير، (ت 228هـ) من بني ريش من خثعم، شاعر ظريف قليل الشعر، عاش في البصرة، كان ماجناً خبيثاً هجاء، وكان من بخلاء الناس، ولم يمدح خليفة. انظر الصفدي: الوافي بالوفيات، 183-182/2.

(2) البغدادي: البخلاء، ص 167.

(3) إبراهيم، وليد عبد المجيد: الشعر الهزلي العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، عمان، الوراق، 2001، ص 58.

قَدْ شَبَّهَ الْمَالَ أَوْغَادَ بَرَبِّهِمْ وَأَوْضَعَ الْفَقْرَ قَوْمًا بَعْدَ تَسْوِيدِ
يَرُوحُ فِي الْجَاهِ أَقْوَامٍ بِمَالِهِمْ وَذُو الْخِصَاصَةِ مَدْفُوعٌ بِتَبَعِيدِ⁽¹⁾

فصاحب المال يعيش شريفاً وسيداً بما يملكه من مال وثروة، والفقير لا يعد من الناس، وينفرون منه لفقره، وهو بذلك يبحث على جمع المال وتجنب الفقر؛ خوفاً من آثاره.

ويحذر العطوي من الفقر والحاجة، ويحث على جمع المال وخرزته، ويدعو إلى تجنب بذله، وذهب إلى أبعد من ذلك حين رأى أن الموت على فقد درهم مبرر، بل هو من أكرم الكرم، معللاً ذلك بأنه لولا غنى المرء وأمواله، لما كانت له قيمة عندهم، يقول العطوي:

دَعِ الرِّيَاءَ لِمَنْ لَجَّ الرِّيَاءُ بِهِ فِي الْأَمْرِ بِالْبَدْلِ وَادْكُرْ ذِلَّةَ الْعَدَمِ⁽²⁾
وَمُتْ عَلَى الدَّرْهِمِ الْمُنْقُوشِ مَوْتاً فَتَى رَأَى الْمَمَاتَ عَلَيْهِ أَكْرَمَ الْكُرْمِ
لَوْ لَا غِنَاكَ لَكُنْتَ الْكَلْبَ عِنْدَهُمْ فَإِنْ أَبَيْتَ فَجَرَّبْ وَأَشَقَّ بِالنَّدَمِ⁽³⁾

ومن الناس من يقوده عشقه للمال والنعم واكتنازه إلى البخل، فبدلاً من أن يتخذه وسيلة إلى سعادة دنيوية أو دينية، يجعله مصدراً لشقائه، فهو يرضن به على نفسه وأهله، وهذا مرض نفسي يشقى صاحبه ويورده المهالك، فصاحب هذا المال الذي يرى فيه غايته، يكدح في جمع المال واكتنازه، ويمنعه عن الآخرين، سرعان ما يضمه الوارث ويتمتع به، يقول العطوي مؤكداً هذا المعنى:

(1) ابن برد، بشار: الديوان، ص431. الخصاصة: الفقر والحاجة. لسان العرب، مادة خصص.
(2) لَجَّ فِي الْأَمْرِ: تَمَادَى بِهِ وَأَصْرَ عَلَيْهِ. لسان العرب، مادة لَجَّ.
(3) القرطبي: بهجة المجالس، 1/204.

يَا جَامِعَا مَانِعَا وَالِدَهُرُ يَرْمُقُهُ مُقَدِّرَا أَيَّ نَابٍ فِيهِ يَعْلَقُهُ
جَمَعْتَ مَالًا هَلْ جَمَعْتَ لَهُ يَا جَامِعَ الْمَالِ أَيَّامًا تُفْرِقُهُ
الْمَالُ عِنْدَكَ مَخْزُونٌ لَوَارِثِهِ مَا الْمَالُ مَالُكَ إِلَّا يَوْمَ تُنْفِقُهُ⁽¹⁾

فهؤلاء البخلاء يرون في المال القوة القاهرة التي يمكن أن تصنع المستحيل، وهو ما يبرر عندهم البخل والتقتير.

والخوف من الفقر، والهلع من المستقبل وما سيأتي به، دفع بعضهم إلى الحث على البخل، يقول ابن المعتز مؤكدا هذا المعنى:

يَا رَبِّ جُودٍ جَرَّ فَقْرَ امْرِئٍ فَاقَامَ لِلنَّاسِ مَقَامَ الدَّلِيلِ
فَأَشْدُدْ عُرَا مَالِكَ وَاسْتَبْقِهِ فَالْبُخْلُ خَيْرٌ مِنْ سُؤَالِ الْبَخِيلِ⁽²⁾

فهو يدعو إلى عدم البذل إذا كان سيؤدي إلى الفقر، فالبخل عنده أفضل من أن يسأل حاجته من الآخرين فيبخلوا عليه.

وقد يكون سلوك أحد الوالدين أو كليهما واتصافه بالبخل والتقتير سببا في توريث هذه الصفة للأبناء، وكثيرا ما يورث هذا السلوك المذموم تفككا في الأسرة، وفتورا في العلاقات بين أفرادها؛ لكونها مبنية على النفع والكسب المادي، وقد يؤدي هذا السلوك إلى انحرافات خطيرة

(1) البغدادي: البخلاء، ص165.

(2) الحصري، إبراهيم بن علي: زهر الآداب وثمر الألباب، شرح زكي مبارك، ط4، بيروت، دار الجيل، 1972، 890/3.

من قبل أحد الوالدين أو كليهما، بخاصة زوجة الرجل البخيل وأبناؤه، فهم ينظرون إلى رب أسرتهم البخيل أنه المانع من تحقيق طلباتهم وحاجاتهم⁽¹⁾.

وتتعدد أسباب البخل تبعاً لتفكير البخيل وفهمه للحياة، فقد يظن أن البخل نوع من الذكاء والفتنة والتدبير لأمر الدنيا، أو أنه لا يستشعر ما ينتظر البخيل من العقوبة يوم القيامة، أو يغفل عن الأجر المترتب على الإنفاق والبذل، أو يتظاهر بأخلاق الزهاد والأتقياء.

ولعل للتغير الذي حل في المجتمع العباسي أثره في انتشار البخل وكثرة البخلاء، فقد أضحى مختلفاً في ثقافته، وتركيبه، وتكوينه، وسلوكه، وعاداته، وتحول من عربيّ صرف إلى عربيّ فارسيّ، ومن ريفيّ العادات والسلوك إلى مدنيّ الطّبع والنزعة، فالمدينة بما تمتاز به من ازدحام السّكان وضعف الروابط بين سكّانها، ومنها بغداد العاصمة الجديدة للخلافة بما حوته من أمم وثقافات وعادات غير عربيّة؛ شجّعت على ظهور المجتمع العباسيّ الجديد بصورته الجديدة، وظهور طائفة من العرب وغير العرب الذين تحلّوا من القيم العربيّة الأصيلة كالجود وحسن الخلق، ويتبعون من السلوك ما يتنافى وتقاليد وعادات المجتمع السّابق، فانتشر عندهم المجون والخلاعة والسلوكات المشينة، وشنّ على عادات العرب وقيمهم هجوماً شرساً⁽²⁾.

وقد كان للصراع الذي نشأ بين العرب والشعوبيين أثر كبير في تغذية مثل هذا النوع من الشعر، ولأن الكرم من أفضل شمائل العرب التي كانوا يعتزون بها، فقد قام بعض الأدباء والشعراء الذين ينتمون للشعبوية كبشار وأبي نواس بدورهم بالحط من مقام العرب، والتباهي

(1) رمضان، محمد: www.mbc.net/Portal/site، 2011.

(2) الجاحظ، عمرو بن بحر: *البخلاء، مقدمة الكتاب*، تحقيق محمد الحاجري، ط5، القاهرة، دار المعارف، (د.ت). ص148-153.

بأمجاد أممهم السالفة، فحاولوا إصاق صفة الجود بهم، وتجريد العرب منها، فعرضوا حديث العرب عن الكرم أنه كلام بلا فعل، فانبرى لهم العرب يدافعون عن أنفسهم، ومنهم الجاحظ الذي عمم ظاهرة البخل عند الشعوبيين، وخصصها عند أفراد من العرب، فهذا نوع من حديث البخل، أشعلت ناره ووجهته تلك الخصومة الجنسية التي ثارت بين الروح العربية والروح الشعوبية⁽¹⁾.

وعمل الخلاف السياسي بين الأحزاب وبخاصة بين الأمويين والعباسيين على ظهور أدب البخل، فقد استُخدم العلماء والأدباء والشعراء والكتّاب من هؤلاء وأولئك في تبادل المثالب، ولعل أشنع هذه المثالب تأثيراً في نفوس الجماهير ما يتعلق بالبخل، الذي تنفر منه الإنسانية، فلا عجب أن يُرمى معاوية وهشام بن عبد الملك وكثير من وجوه العصر الأموي بالبخل، ويصبحوا موضع التندر بالبخل والشره⁽²⁾.

ونظراً لكون شعر البخل شعراً اجتماعياً يتناول فيه الشاعر مظاهر سلوكية يتصف بها الخاصة والعامة، فقد كان للسخرية نصيب كبير في التعرض لهذه الخصلة، فقد سلك الشعراء في نقدهم للبخل مسلك السخرية اللطيفة التي تشير إلى مواطن العيوب، وتصورها في جو مرح، والفكاهة من حيث كونها هدفاً يقصد إليه ويحتفل به أمر جديد عرفه الشعر العربي في

(1) انظر خريس، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التجديد بين أبي نواس ومعاصريه، ط1، بيروت، الرسالة،

1994، ص20. وانظر الحاجري، مقدمة كتاب البخل، ص 28-29.

(2) انظر الجاحظ: البخل، ص148-153.

موكب الحضارة، ولا يعني هذا خلو شعر الشعراء السابقين من الأبيات الفكاهة التي كانت ترد في سياق الهجاء، ولكن كان ذلك على نطاق ضيق⁽¹⁾.

وتعد مقطعات الحمدي في طيلسان⁽²⁾ ابن حرب وشاة سعيد⁽³⁾ مظهرا من مظاهر شعر الفكاهة، فجل هذه المقطعات فاضت بالفكاهة العذبة الهادئة حيناً، والصاخبة الصارخة حيناً آخر، وهي في جملتها مسلاة للنفس ومهجة للقلب، ومنها قوله في الطيلسان يشبهه بالخمير والمريض:

أُودَى فُؤَايَ بِكَتْرَةِ الْغَرَمِ	قُلْ لِابْنِ حَرْبٍ طَيْلَسَانُكَ قَدْ
آثَارَ رَفْوٍ أَوْائِلِ الْأَمَمِ	مُنْبَتِّينَ فِيهِ لِمُبْصِرِهِ
فِي يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمِ	فَكَأَنَّهُ الْخُمُرُ الَّتِي وُصِفَتْ
قَدْ صَحَّ، قَالَ لَهُ الْبَلَى: أَنْهَدِمِ	فَإِذَا رَمَمْنَاهُ وَقِيلَ لَنَا
نَكْسٌ فَأَسْلَمَهُ إِلَى السَّقَمِ	مِثْلَ السَّقِيمِ بَرَى فَرَجَعَهُ
وَمِنَ الْعَنَاءِ رِيَاضَةَ الْهَرَمِ ⁽⁴⁾	أَنْشَدْتُ حِينَ طَغَى فَأَعْجَزَنِي

فالصور الساخرة التي رسمها الحمدي لهذا الطيلسان أضفت جواً مرحاً، فهو لباس خلق بالقديم، ولكثرة تمزيقه كأنه مزق في مأتم، أو هو كبناء مهدم، وهو بمجرد النظر إليه

(1) الشكعة، مصطفى: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب الشعر، ط2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1974، ص217.

(2) الطيلسان: ضرب من الملابس، وهو لفظ فارسي معرب من كلمة تالشان، وهو من لباس العجم. لسان العرب، مادة طلس.

(3) هو سعيد بن أحمد جواسيدان. ابن الجراح، محمد بن داود: الورقة، تحقيق عبد الوهاب العزام وعبد الستار فراج، ط3، دمشق، دار المعارف، 1986، ص62.

(4) الكتبي، محمد بن شاکر: فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، ط1، بيروت، دار صادر، 1973، 1/175.

يتمزق كما يتمزق قلب العاشق المغرم، ولكثرة رفوه أصبح ثوبا مرقعا بحيث تغير لونه وشكله فأضحى كبلد يسكنه الغرباء، أو هو عجوز رثة الحال هزيلة، أو كالآل لا يرى من كثرة رفوه، وكل هذه الصور الساخرة لجأ إليها الحمدي ليضحك ويمتع قراءه، وينال من مهجوه.

ومن ظرفاء الشعراء الذين جرت الفكاهة على ألسنتهم، ونبعت من خواطرهم عذبة جحظة البرمكي، وقد زخر ديوانه بهذا النوع من الشعر الفكاهي الذي يتناول بخل البخلاء، ويكفي تدليلا على ذلك مقطوعته عن القطائف، فقد زار جحظة أحد البخلاء فعزم عليه بقطائف أوشتت على الفساد، وكان جحظة على جوع شديد، وبعد تردد منه هجم على طبق القطائف وأعمل فيه أكلا، والمضيف البخيل ينظر إليه شزرا، ويقول له: يا أبا الحسن، إن القطائف إذا كانت بجوز أتخمتك، وإذا كانت بلوز أبشمتك، فقال له جحظة: هذا إذا كانت قطائف، ثم صنع هذه الأبيات⁽¹⁾:

دَعَانِي صَدِيقِي لِأَكُلِ قَطَائِفِ	فَأَمَعَنْتُ فِيهَا آمِنًا غَيْرَ خَائِفِ
فَقَالَ وَقَدْ أَوْجَعْتُ بِالْأَكْلِ قَلْبَهُ	رُوَيْدَكَ مَهْلًا فَهِيَ إِحْدَى الْمَتَائِفِ
فَقُلْتُ لَهُ: مَا إِنَّ سَمِعْنَا بِهَالِكِ	يُنَادِي عَلَيْهِ: يَا قَتِيلَ الْقَطَائِفِ ⁽²⁾

وخلاصة القول، إن التغيرات الحضارية التي أفرزت واقعا جديدا وانعكست على الحياة الاجتماعية، كان لها الأثر الكبير في تغذية عوامل البخل المتأصلة في نفوس البخلاء، وأوجدت عوامل جديدة كانت تربة خصبة له.

(1) الحموي، ياقوت: معجم الأدياء، بيروت، دار الكتب العلمية، 1991، 2/263.

(2) البرمكي: الديوان، ص 126.

الفصل الأول

صورة البخيل في الشعر العباسي في القرنين الثاني والثالث الهجريين

تعددت أشكال البخلاء في المجتمع العباسي شأنه في ذلك شأن بقية المجتمعات، فالبخل مرض اجتماعي عام لا يختص بأمة دون غيرها، وتبعاً لهذا التعدد تنوعت صورته وتشكلت في لوحات إبداعية رسمها الشعراء، فمنها ما اختص ببخيل الطعام وأدواته، ومنها ما تناول ببخيل المال، ومنها ما عرض للبخيل لحظة الاستقبال، ومنها ما تناول هدايا البخيل.

صورة بخيل الطعام وآتيته:

يشكل الطعام عنصراً أساسياً في حياة الناس لا يمكن الاستغناء عنه، فبدونه لا تعيش الكائنات؛ لذا كان الإنسان على مرّ التاريخ حريصاً على توفيره، بيد أنّ فئة من الناس منحها الله هذه النعمة فأمسكت يدها، ومنعت طعامها عن المحتاجين والزائرين لها.

ويعد الخبز من أهم أنواع الطعام الذي بخل بها البخلاء في المجتمع العباسي لكونه الغذاء الرئيس الذي يتناوله الناس في وجباتهم، ولا يخلو أي بيت منه؛ لذا تعددت صور البخيل مع رغيته، ومن ذلك الصورة الكاريكاتيرية التي رسمها أبو نواس لسعيد بن سلم مع رغيته، يقول:

رَغِيفُ سَعِيدٍ عِنْدَهُ عِدْلُ نَفْسِهِ وَيَقْبَلُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يُلَاعِبُهُ⁽¹⁾
وَيُخْرِجُهُ مِنْ كُمَّهِ فَيَتَشَمُّهُ وَيَجْلِسُهُ فِي حُجْرِهِ وَيُخَاطِبُهُ
وَإِنْ جَاءَهُ الْمِسْكِينُ يَطْلُبُ فَضْلَهُ فَقَدْ تَكَلَّمَتْهُ أُمُّهُ وَأَقَارِبُهُ
يَكْرَهُ عَلَيْهِ السَّوْطُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَتُكْسِرُ رِجْلَاهُ وَيُنْتَفِ شَارِبُهُ⁽²⁾

(1) سعيد: المقصود سعيد بن سليم بن قتيبة، بن مسلم، كان سيدياً كبيراً ممدحاً، تولّى أرمينيا والموصل والسند والجزيرة، توفي سنة 217. انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، 88/4.

(2) أبو نواس، الحسن بن هانئ: الديوان، شرح وضبط علي فاعور، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987، ص81.

فسعيد هذا يلاعب رغيفه ويقلبه كما يلاعب الأب ابنه الصغير، ويعدّه بشرا مكافئاً له، فيشمّه ويجلسه ويخاطبه، والويل كلّ الويل للضيف الذي يطلب جزءاً منه، فالسّوط جاهز للضرب، بل ويكسر رجليه وينتف شاربه، وهي صورة حية مضحكة جمع فيها أبو نواس الحواس والحركة ليؤكد بخل إسماعيل.

ويوغل أبو نواس في رسم صورة بخل إسماعيل هذا، وحرصه على خبزه بلوحة فنّية أخرى، وذلك حين وصف خبزه بالثوب الملونّ بألوان زاهية مختلفة ومنمّقة، يقول:

خُبْزُ إِسْمَاعِيلَ كَالْوَشِّ	ي إِذَا مَا انْتَشَقَّ يُرْفَقَا ⁽¹⁾
عَجَبًا مِنْ أَثَرِ الصَّنْ	عَةٍ فِيهِ كَيْفَ يَخْفَى
إِنَّ رَفْقًا هَذَا	أَحَدَقُ الْأُمَّةِ كَفَا
وَإِذَا قَابَلَ بِالنِّصْنِ	فِ مِنْ الْجَرْدَقِ نِصْفَا ⁽²⁾
يُصِيقُ النَّصْفَ بِنِصْفِ	فَإِذَا قَدَّ صَارَ أَلْفَا
مِثْلًا جَاءَ مِنَ التَّتْنِ	نُورٍ مَا غَادَرَ حَرْقَا ⁽³⁾

فإسماعيل هذا جعل رغيفه كالملايس الملونة الزاهية، فإذا ما تفتت يحيكه بفن وإبداع كما يخيط الخياط ثيابه، ويخفي أثر الحياكة بمهارة تفوق من يحيك الملايس، فيعود رغيفه كما كان، والصورة هذه أضفت قوة للمعنى بما حوته من مبالغة وسخرية.

(1) الوشي: الثوب المنمق بألوان مختلفة. يرفق: رفاً الثوب إذا لم خرقه وضمّ بعضه إلى بعض، وأصلح ما وهي منه.

لسان العرب، مادة وشي ورفقاً.

(2) الجردق: رغيف الخبز، كلمة فارسية معربة. لسان العرب، مادة جردق.

(3) أبو نواس: الديوان، ص361.

ويرسم أبو نواس صورة لرغيف أحد البخلاء بقوله:

فَتَى لِرَغِيفِهِ قُرْطٌ وَشَنْفٌ⁽¹⁾ وَخِلْالَانِ مِنْ خَرَزٍ وَشَذْرٍ⁽¹⁾
إِذَا فَقَدَ الرَّغِيفَ بَكَى عَلَيْهِ بُكَاءَ الْخَنَسَاءِ إِذْ فُجِعَتْ بِصَخْرٍ
وَدُونَ رَغِيفِهِ قَلْعُ الثَّنَائِيَا وَحَرْبٌ مِثْلَ وَقْعَةِ يَوْمِ بَدْرٍ⁽²⁾

فرغيفه أصبح عروسا قد زينت بالأكاليل والقرط والدر؛ حرصا عليه وحبًا له، وتزداد الصورة جمالا بوصف أثر فقده رغيفه، هذا الرغيف الذي يمثل له ابنا مات، فهو يذرف الدموع مدرارا عليه كما ذرفت الخنساء دموعها لموت أخيها صخر، ثم يعبر عن استحالة الوصول إلى رغيفه بذكر مخاطر الاقتراب، فهو محمي ومحصن، ويدافع عنه بكل ما أوتي من قوة، فتناوله لا يكون إلا بعد قلع الثنايا، ومعركة كمعركة بدر، وهي صورة هزلية تعبر عن بخل شديد عنده.

ويذهب أبو الشَّمَقِقِ بعيدا في سخريته من شخص لم يسمه، يقول:

يَا كَاسِرَا حَرَفَ الرَّغِيفِ عَرَضْتَ نَفْسَكَ لِلْحَتُوفِ⁽³⁾
أَوْ مَا عَلِمْتَ بِأَنْ هُوَ ذَةَ غَيْرِ نَوَامٍ ضَعِيفِ⁽⁴⁾
وَتَرَاهُ خَوْفَ مُطَفِّلٍ لِلْبُخْلِ يَأْكُلُ فِي الْكَئِيفِ⁽⁵⁾

(1) القرط والشنف: من أنواع الحلبي التي تزين الأذن، والقرط أعلاها والشنف أسفلها. لسان العرب، مادة قرط وشنف.
الشذر: نوع من الذهب يزين به، وقيل هو اللؤلؤ. لسان العرب، مادة شذر.
(2) أبو نواس: الديوان، ص 278. الثنايا: الأضراس، الأسنان الأربع في مقدمة الفيه. لسان العرب، مادة ثني.
(3) حرف الرغيف: جانبه وطرفه. لسان العرب، مادة حرف.
(4) هوزة: ضرب من الطير، وبها سمي الرجل. لسان العرب، مادة هوز.
(5) البغدادي: البخلاء، ص 147.

فهذا الرَّجُلُ كان حريصا على رغيفه لدرجة أنه كان لا ينام خوفا عليه، بل كان يأكل في الكنيف خوفا من المتطفلين، وإن جاءه ضيف وأكل من رغيفه، فالويل له والموت بانتظاره، وهي صورة هزليّة تعبّر عن شحّ هذا الرَّجُل وحرصه بأسلوب لطيف ساخر. وهي شبيهة بالصورة التي رسمها رجل لأبي دلف، فقد أورد صاحب عيون الأخبار أنّ رجلا كان يأكل مع أبي دلف، فسئل كيف كان طعامه؟ فقال كان على مائدته رغيّفان، بينهما نقرة جوزة، وقال هذا الرَّجُل:

أَبُو دَلْفٍ يُضَيِّعُ أَلْفَ أَلْفٍ وَيَضْرِبُ بِالْحُسَامِ عَلَى الرَّغِيفِ⁽¹⁾

فعلى الرَّغم من أنّ أبا دلف كان مستعدّا لدفع المال، غير أنّه كان شديد الحرص على رغيفه، وهو مستعدّ أن يضرب بالسيف خوفا عليه.

ويصور لنا الحموي خبز أحد البخلاء الذين زارهم فيقول:

أَتَانَا بِخُبْزٍ لَهُ حَامِضٍ شَبِيهِ الدَّرَاهِمِ فِي حَلِيَّتِهِ
يُضَارِسُ أَكْلَهُ طَعْمُهُ وَيَنْشَبُ فِي الْحَلْقِ مِنْ خَشْتَتِهِ⁽²⁾
إِذَا مَا تَنَفَّسَ عِنْدَ الْخَوَانِ تَطَايَرَ فِي الْبَيْتِ مِنْ خَفَّتِهِ
فَنَحْنُ جُلُوسٌ مَعَا كُنَّا نُدَارِي النَّفْسَ مِنْ خَشْيَتِهِ⁽³⁾

(1) الدينوري، عبد الله بن قتيبة: عيون الأخبار، بيروت، دار الكتب العلمية، 1986، ص270.

(2) التضريس: خور يصيب الضرس أو السن عند أكل الشيء الحامض. لسان العرب، مادة ضرس. ينشب: يعلق. لسان العرب، مادة نشب.

(3) البغدادي: البخلاء، ص142.

فخبزه هذا طعمه حامض، وهو يشبه الدراهم بلونه المتعفن، ويصيب الضرر بالخور عند أكله لحموضته، ولخشونته يلصق بخلق الأكل منه، ويخشى الأكلون أن يتطاير فيمتعون عن التنفس نظرا لخفته وتفتته، وهي صورة هزليه جمع فيها الحمدوي بين الطعم واللون والحركة لإظهار بخل هذا المضيف.

ويرسم في لوحة ساهرة صورة أخرى لرغيف أبي نوح، يقول:

لأبِي نوح رَغِيف	أَبدا في حُضْنِ دَائِيه
بُورَة تَمَسَّحُهُ الدَّه	رَبِّكُمْ وَوَقَائِيه
وَتَعَاوِيذُ عَلِيه	خَطَّ فِيهَا بَعْنَائِيه
فَسَيَكْفُوكُهُمُ الل	هُ إِلِي آخِرِ الْآيِيه ⁽¹⁾

فرغيفه كالطفل الصغير المدلل، جلب له مرببة خاصة له تحافظ عليه وتمسحه، ولا يكتفي بذلك بل يخط عليه التعاويذ خوفا من أن يصيبه مكروه أو أن يأكل منه غيره، وهي صورة ساهرة أظهر فيها الحمدوي براعة في إيصال مراده، وهو شدة بخل أبي نوح.

وفي أسلوب هزلي، وبصورة جميلة، يحتال ابن بسام في وصف بخل أبيه أبي جعفر،

يقول متهكما:

خُبْرُ أَبِي جَعْفَرٍ طَبَاشِير	فِيهِ الْأَفَاوِيهُ وَالْعَقَاقِير ⁽²⁾
فِيهِ دَوَاءٌ لِكُلِّ مَعْضِلَةٍ	لِلْبَطْنِ وَالصَّدرِ وَالْبَوَاسِير

(1) البغدادي: البخلاء، ص142-143. اقتباس من الآية 137 من سورة البقرة.

(2) الأفايه والعقاقير: الرائحة الطيبة والدواء. لسان العرب، مادة فوه وعقر.

وَقَصْعَةً مِّثْلَ مَدَّهِنِ صِغْرًا تَزَعَقُ مِنْ حَوْلِهِ النَّوَاطِيرُ (1)
وَنَيْلٍ مَا تَرْتَجِيهِ مِنْ يَدِهِ مَا لَيْسَ تَجْرِي بِهِ الْمَقَادِيرُ (2)

فخبزه كالصيدليّة فيها من جميع الأدوية، ولونه كلون الطباشير، وهو يصلح في علاج أمراض البطن والصدر والبواسير، والقصعة التي يوضع بها خبزه صغيرة كالإناء الصّغير الذي يوضع فيه الدواء ويسحق، ولكنّ هذا الخبز بعيد عن المنال، لا يمكن الوصول إليه؛ لأنّ هناك من يحرسه ويحميه، وهي صورة ساخرة وازن فيها بين خبز أبيه والدواء؛ ليدلّل على شحّ أبيه.

ومن جميل الوصف وصف دعبل لإخفاء بخيل رغيّفه عن الناس، يقول:

إِنَّ هَذَا الْفَتَى يَصُونُ رَغِيْفَا مَا إِلَيْهِ لِنَاطِرٍ مِنْ سَبِيلِ
هُوَ فِي سُفْرَتَيْنِ مِنْ أَدَمِ الطَّا نَفٍ فِي سَلْتَيْنِ فِي مَنْدِيلِ (3)
خُتِمَتْ كُلُّ سَلَّةٍ بِرِصَاصٍ وَسُيُورٍ قُدْنٍ مِنْ جِلْدِ فَيْلِ
فِي جِرَابٍ فِي جَوْفٍ تَابُوتِ مُوسَى وَالْمَفَاتِيْحُ عِنْدَ مِيكَائِيلِ (4)

فقد استحضر دعبل جزءاً من قصة موسى -عليه السلام- عندما وضعت أمه بالتابوت وأغلقت عليه بإحكام، فأفاد الشاعر من هذه الجزئية ليؤكد بخل المهجو بوضعه رغيّفه في وعاء

(1) الناطور: واحدها ناطور، وهو حافظ الزرع والثمر والطعام. لسان العرب، مادة نطر.

(2) المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين، ط4، القاهرة، المكتبة التجارية التجارية الكبرى، 1965، 297/4.

(3) السفارة: طعام المسافرين يحمل في جلد مستدير، وأكثر ما يحمل في جلد مستدير. لسان العرب، مادة سفر.

(4) الخزاعي، دعبل بن علي: الديوان، صنعه عبد الكريم الأشقر، ط2، دمشق، مجمع اللغة العربية، 1983، ص223-224.

محكم، وليزيد من جمال الصورة وقوتها استحضار اسم الملك ميكائيل؛ ليؤكد استحالة الوصول لرغيفه وطعامه كما لا يمكن الوصول للملك ميكائيل.

ووصف بعض الشعراء بخلاء الطعام من غير الخبز، ومن ذلك قول محمود الوراق يعاتب الشاعر صديقا له كان يعده بذبح دجاج رباه عنده، ولكنه كان يخلف وعده، فلما طال هذا الأمر عاتبه بقوله:

دَجَاجُ أَبِي عَثْمَانَ أَبْعَدُ مَنْظَرًا وَأَطْوَلُ أَعْمَارًا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
فَإِنْ لَمْ نَمُتْ حَتَّى نَفُوزَ بِأَكْلِهَا حَبِيبُ بِلْدَانِ اللَّهِ مَا أَوْرَقَ الشَّجَرِ⁽¹⁾

فهو دجاج بعيد المنال، يطيل صاحبه في عمره كي يحفظها من الآخرين.

ويقول ابن الرومي يصف مائدة أحد البخلاء:

خَوَانُ عَيْسَى مِنْ نِصْفِ تَرْمَسَةٍ وَصَحْفَتَاهُ مِنْ فَلَاقَتِي عَدَسَةٍ
مِنْ ذَرَّةٍ ذَرَّةٍ جَرَادِقُوهُ تَخْفَى عَلَى الْعَيْنِ فَهِيَ مُلْتَمَسَةٌ
لَوْ تَحَلَّتْ بِالْحَرِيرِ لِأَنْسَرَبَت مِنْ خَلِّ النَّسِجِ غَيْرَ مُحْتَبَسَةٍ⁽²⁾

فهي مائدة لا يرى فيها إلا النزر اليسير من الطعام، فلا تكاد تجد عليها إلا نصف ترمسة، وفلاقتي عدسة، وقطعة صغيرة من الخبز لا تكاد تراها العين، وقد أكسبت هذه المبالغات الصورة تأثيرا وقوة.

(1) البغدادي: البخلاء، ص 111.

(2) ابن الرومي: الديوان، 192/2.

وقد ربط الشعراء بين البخل في الطعام وبين الأنية التي تستخدم في صنعه، وكانت القدور وسيلة من وسائلهم في ذلك، وممن أحسن في وصفها الشاعر أبو نواس وذلك في وصف قدر الرقاشي وقومه، يقول:

تَبَيَّنَ فِي مَخْرَاشِهَا أَنَّ عَوْدَهَا سَلِيمٌ صَاحِبٌ لَمْ يُصِْبْهُ أذى الْجَمْرِ⁽¹⁾
يُبَيِّنُهَا لِلْمُعْتَقِي بِفَنَائِهِمْ ثَلَاثًا كَنَقَطِ النَّاءِ مِنْ نَقَطِ الْحَيْرِ
وَلَوْ جَبَّتْهَا مَلَأَى عَيْبًا مُجَزَّلًا لِأَخْرَجَتْ مَا فِيهَا عَلَى طَرْفِ الظُّفْرِ⁽²⁾

فهذه القدور لم تر النار ولم يستخدمها أصحابها إلا ما ندر، ومما زاد من جمال اللوحة تلك الصورة التي رسمها لتلك الأثافي والحجارة التي توضع عليها القدور ليطبخ فيها، فهي ثلاث حجارة متناهية في الصغر كنقط حرف الناء، وإن استخدموها وطبخوا لحما، كان هذا اللحم نزيرا لحد أنه يمكن إخراجه بطرف الظفر، وهي صورة بالغ أبو نواس في رسمها للرقاشيين، مما جعلها أكثر إيلا ما ووقعا على النفس.

ومن صورهِ الأخرى فيها قوله:

قَدْرُ الرَّقَاشِيِّ مَضْرُوبٌ بِهَا الْمَثَلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ خَلا النَّيِّرَانَ تَبْتَدَلُ
تَشْكُو إِلَى قَدْرِ جَارَاتٍ إِذَا التَّقَاتَا الْيَوْمَ لِي سَنَةٌ مَا مَسَّنِي بَلَلُ⁽³⁾

فهو يشخصها فتاة حزينة، تشكو إلى غيرها من القدور، فهي لم يمستها بلل الماء والدهن

منذ عام، وهو بذلك يرمز إلى بخل الرقاشي.

(1) المخراش: العصا المعوجة من الصولجان. لسان العرب، مادة خرش.

(2) أبو نواس: الديوان، ص277. العبيط: لحم الذبيحة إذا كان سليما من الآفات. لسان العرب، مادة عبط.

(3) البغدادي: البخلاء، ص88.

وفي صورة أخرى يرسمها الرياشي، تظهر قدر رفاش تلفة متداعية على الرغم من أنها

لم توضع على النيران، يقول:

إِذَا انْغَاصَ مِنْهَا بَعْضُهَا لَمْ تَجِدْ لَهَا دَوِيًّا لِمَا قَدْ كَانَ مِنْهَا مُدَانِيَا⁽¹⁾
وَإِنْ حَاوَلُوا أَنْ يَشْعَبُوهَا رَأَيْتَهَا عَلَى الشَّعْبِ لَا تَزْدَادُ إِلَّا تَدَاعِيَا⁽²⁾
فَقَالُوا: وَهَلْ يَخْفَى عَلَى كُلِّ نَاطِرٍ قُدُورُ رَقَاشٍ إِنْ تَأَمَّلَ رَائِيَا
فَقُلْتُ: مَتَى بِاللَّحْمِ عَهْدُ قُدُورِكُمْ إِذَا مَا لَمْ يَكُنَّ عَوَارِيَا
الْأَضْحَى إِلَى الْأَضْحَى وَإِلَّا فَإِنَّهَا تَكُونُ كَنَسَجِ الْعَنْكَبُوتِ كَمَا هِيََا⁽³⁾

فهذه القدور لم يوضع فيها اللحم من الأضحى إلى الأضحى، ولم تستخدم في العام إلا

مرة واحدة، وهي مخزونة لتكون بيتا للعنكبوت، وقد وظف الشاعر الحوار بينه وبين محاوريه

ليظهر هيئة هذه القدور، وليكشف شخ أصحابها، وقلة طبخهم الطعام.

وقد وصف بعض الشعراء مطبخ البخلاء، ومن ذلك قول دعبل الخزاعي:

أُفْقِلُ مَطْبَخًا لَا شَيْءَ فِيهِ مِنْ الدُّنْيَا يَخَافُ عَلَيْهِ أَكْلُ
فَهَذَا الْمَطْبَخُ اسْتَوْتَقَّتْ مِنْهُ فَمَا بِالْكَنَيْفِ عَلَيْهِ قُفْلُ
وَلَكِنْ قَدْ بَخُلْتَ بِكُلِّ شَيْءٍ فَحَتَّى السَّلْحِ مِنْكَ عَلَيْهِ بُخْلُ⁽⁴⁾

(1) انغاص: نزل. لسان العرب، مادة غوص.

(2) يشعبوها: يصلحوا ما تكسر منها. لسان العرب، مادة شعب.

(3) الجاحظ: البخلاء، ص 222-223.

(4) الخزاعي: الديوان، ص 213-214.

فهذا البخيل قد أقفل مطبخه على الرغم من أنه فارغ من الطعام، ولم يكتف بذلك بل قفل كنيفه أيضاً، ومنع ضيوفه النجو فيه.

ومطبخ أبي دلف عند أحدهم فيه ما لذّ من الطعام، ولكن الوصول إلى هذا الطعام يكلف صاحبه خوض معركة بالسيوف، وهي صورة ساخرة لهذا البخيل ومطبخه، وهذا ما يتجلى في قوله:

أبو دُلْفٍ لِمَطْبَخِهِ قُتَارٌ ولكنْ دونَهُ ضَرَبُ السَّيْفِ⁽¹⁾

ويتضح أن البخل في الخبز كان له نصيب كبير في شعر القرنين الثاني والثالث الهجريين، ولا يعني هذا أن البخلاء بغيره كانوا قلة، بل هم كثيرون، ولكن بخلهم بأصناف الطعام الأخرى يظهر أكثر ما يظهر عند استقبالهم الضيوف، وتقديمهم هذه الأصناف لهم، وهو ما سيتم تناوله في باب البخل في الضيافة والاستقبال.

صورة البخيل في الاستقبال والضيافة:

يعتد الإنسان العربي بكرمه في استقبال الأضياف، وهي من العادات الاجتماعية التي مجدوها، وقد تنافس العرب في القديم في إكرام الضيف والتفاخر في ذلك، فمنهم من كان يوقد ناره ليلاً لكي يستدلّ الضيف على بيته، وهي علامة على أن صاحب هذه النار يدعو إلى بيته ليكرمه، وقد كان العرب يتفاخرون بذلك.

(1) الدينوري: عيون الأخبار، ص270. قنار: ريح القدر. لسان العرب، مادة قنر.

وللضيافة أصول وعادات تبدأ بالترحيب والحفاوة والاستقبال بعبارات جميلة، تجعل الضيف يشعر بأنه في داره أو بين أهله، ومن مظاهر الحفاوة بالضيف التي نقلها لنا الشعر ووثقها، أن يبدو البشر والفرح على وجه المضيف، وعندهم أن تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة؛ ليأنس الضيف، ولهذا قال حاتم الطائي:

سلي الجائع الغرثان يا أمّ منذرٍ إذا ما أتاني بئِن ناري ومجزري
أبسّط وجهي أنه أول القرى وأبذل معروفِي له دون منكري⁽¹⁾

ويعدّ العبوس في وجه الأضياف عارا يجعل صاحبه هدفاً لألسنة الشعراء؛ لذا فقد سعى الشعراء على مرّ العصور إلى نفي هذه الصفة عنهم، والافتخار بحسن استقبال أضيافهم، يقول الخزيمي⁽²⁾ واصفاً استقباله ضيفه بالوجه الضاحك والمحلّ الخصب:

أضاحكُ ضيقي قبل إنزالِ رحله ويخصبُ عندي والمحلُّ جديبُ
وما الخصبُ للأضيافِ أن يكثرَ القرى ولكنّما وجّه الكريمِ خصيبُ⁽³⁾

وقد انتقد الشعراء العباسيون هذه الظاهرة في البخلاء، وعدّوها عارا ونقصا، ورسوموا لأصحابها صورا متعدّدة ومنفّرة، فيها من السّخرية ما فيها، ومن ذلك تلك الصورة التي رسمها بشّار بن برد يعرض فيها ببخيل، يصاب بالجنون، ويطيّر فؤاده إذا جاءه زائر يسلمّ عليه؛ خوفاً من أن يطلب إليه شيئا، يقول بشّار:

(1) الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، دار صعب، 1868، ص 20-21.
(2) إسحاق بن حسان الخزيمي، (ت 212هـ)، خراساني الأصل، سكن في بغداد، كان من الشعراء الفصحاء. انظر الصفدي: الوافي بالوفيات، 266/8. الزركلي: الأعلام، 294/1.
(3) الدينوري: عيون الأخبار، 362/3.

إِذَا سَلَّمَ الْمِسْكِينُ طَارَ فُؤَادُهُ مَخَافَةَ سُؤْلِ وَاعْتِرَاهُ جُنُونُهُ⁽¹⁾

ويصف أبو الشمقمق بخيلاً لم يسمه بقوله:

وَمُحْتَجِبٍ وَالنَّاسُ لَا يَقْرُبُونَهُ وَقَدْ مَاتَ هُزْلاً مِنْ وَرَى الْبَابِ حَاجِبُهُ
إِذَا قِيلَ مَنْ ذَا مُقْبِلًا قِيلَ لَا حَدٌّ وَإِنْ قِيلَ مَنْ ذَا خَلْفَهُ قِيلَ كَاتِبُهُ⁽²⁾

فهو يعتزل الناس حتى لا يتكلف مؤونة إنفاق الطعام عليهم، ومن أراد حاجة منه فسيموت من الجوع وهو ينتظر أمام بيته، حتى حاجبه محروم من طعامه، وهي صورة تعكس بخل هذا الإنسان وحرصه.

ويدعو ابن الرومي إلى تجنب تناول الطعام عند البخيل، في قوله:

إِيَّاكَ إِيَّاكَ إِيَّاكَ إِنْ زُرُّ تَهُ تَهُ تَهُ بِمُطْعَمِ
إِنَّ الْحَالَ لَدَيْهِ عَلَى الضُّيُوفِ مُحَرَّمِ
فَمَنْ أَبَاحَ حِمَاهُ كَانَ الْقَصَاصُ مِنَ الدَّمِ
يَا رَبِّ شُهُدِ أَكْنَا هُ عِنْدَهُ كَمَا أَنَّ عَاقِمِ
أَضَافْنَا فَأَكْنَا فَنَحْنُ نُهَجَى وَنُشْتَمِ
وَلَمْ يَكُنْ مِنْ كَرِيمِ لَكِنَّا يَتَكَّرِمِ⁽³⁾

(1) بشار: الديوان، ص 615.

(2) ابن المعتز، عبد الله: الطبقات، تحقيق صلاح الدين الهواري، ط1، بيروت، دار ومكتبة الهلال، 2002، ص 54.

(3) ابن الرومي: الديوان، 344/3-345.

فهو يحلل الطعام له ويحرمه على ضيفانه، لذلك فتجنب أيها الضيف طعامه لأن القصاص سيقع عليك، والشتيمة ستالك، ولبخله فإن الشهد عنده يغدو علقم لما يسمعه الضيف من شتيمة ودم، ولذا فهو ليس بكريم، إنما يتظاهر بالكرم.

وإدعاء المضيف الصيام هو علامة ودليل على سوء الضيافة، يقول ابن الرومي في

ذلك:

وَيَبْخَلُ عَنْهُمْ بِأَجْرِ الصَّيَامِ	بَخِيلٌ يُصَوِّمُ أَضْيَافَهُ
وَهُمْ صَائِمُونَ وَهُمْ فِي أَثَامِ	فَهُمْ مُفْطِرُونَ وَلَا يُطْعَمُونَ
عَلَى رَفَثِ الْقَوْلِ دُونَ الطَّعَامِ	فَيَحْتَالُ بَخْلاً لِأَنْ يُفْطِرُوا
وَتَمَّ لَهُ الْبُخْلُ كُلَّ التَّمَامِ ⁽¹⁾	لَقَدْ جَاءَ بِاللُّؤْمِ مِنْ فَصَّاهِ

فهو يرسم في هذه اللوحة الساخرة صورة لبخيل يمنع عن أضيافه الطعام، فهم صائمون قسرا، ولكنه صوم دون أجر، وإذا كان لا بد من إطعامهم، فطعامهم الكلام القبيح والشتيمة، ولا غرابة في ذلك فالبخل متأصل فيه.

ويقول منصور الفقيه معبرا عن هذا المعنى بأسلوب حواريّ سلس، واصفا ما جرى

بينه وبين مضيفه:

فَقَالَ: إِنِّي صَائِمٌ	أَتَيْتُ عَمْرًا سَحْرًا
فَقَالَ: إِنِّي قَائِمٌ	فَقُلْتُ: إِنِّي قَاعِدٌ

(1) النويري: نهاية الأرب، 3/313. من فصّه: على أصله وطبعه. لسان العرب، مادة فصص.

فَقُلْتُ أَتَيْكَ غَدًا فَقَالَ: صَوْمِي دَائِمًا⁽¹⁾

ويعاتب لحظة في أبيات مضيفه الذي دعاه وفرّ منه؛ حرصا وبخلا على طعامه، على

الرغم من أنه كان سيرضى بالقليل من الطعام الرخيص، يقول:

يَا مَنْ دَعَانِي وَقَرَّ مِنِّي أَخْلَفْتُ وَاللَّهِ حُسْنَ ظَنِّي

قَدْ كُنْتُ أَرْضَى بِخُبْزِ رُزٍّ وَمَالِحٍ أَوْ قَلِيلِ بُنٍّ⁽²⁾

وفي مقطوعة أخرى يرسم لحظة صورة جسد فيها بخل مضيفه، موظفا الحوار بينه

وبين صديقه في إخراج هذه الصورة، فأبي مصيبة وقع بها هذا المضيف بدعوته لحظة ليتناول

من طعامه؟ وكيف لحظة أن يتمالك نفسه أمام هذه الفراريج وتلك الكبود؟ تلك فرصة لحظة

أن يعمل في فراريجه أكلا، ولا يترك كبدا ولا مرقة ولا جلدًا، فاستشاط صديقه غضبا لفعله،

وأقسم ألا يعود لدعوته مرّة أخرى، يقول لحظة:

وَخِلُّ وَدَوْدٍ دَعَانِي وَقَدِّ تَوَهَّمْتُ أَنِّي لَهُ خِلُّ وَدَوْدٍ

أَبْخَتُ حَرِيمَ فَرَارِيحِهِ وَكَانَتْ حُمُرٌ أَنْ تَمَسَّ الْجُلُودَ⁽³⁾

وَدُونَ الرِّقَابِ تُدَقُّ الرِّقَابُ وَدُونَ الْكُبُودِ تُرَضُّ الْكُبُودِ

فَقَالَ وَصَاعِدَ أَنْفَاسَهُ نَعَمْ، هَكَذَا تُسْتَتَارُ الْحُقُودِ

فَقُلْتُ وَقَدْ كَانَ مَا كَانَ: لَا أَعُودُ فَقَالَ: أَنَا لَا أَعُودُ⁽⁴⁾

(1) القحطاني، عبد المحسن فراج: منصور بن إسماعيل الفقيه حياته وشعره، ط2، بيروت، دار القلم، 1981، ص138.

(2) البرمكي: الديوان، ص179. البن: الشحم. لسان العرب، مادة بن.

(3) حمر: مشقة وصعوبة، كناية عن بخله. لسان العرب، مادة حمر.

(4) البرمكي: الديوان، ص76.

ويختتم المشهد بذلك الحوار الذي كشف عن نفس فاضت غضبا وحقدا على جحظة،
وبعد من مضيفه أن لا يعود لدعوته مرة أخرى.

وَوَضَعَ الْأَغْنِيَاءُ الْحَجَابَ عَلَى أَبْوَابِ مَنَازِلِهِمْ وَفِي حِمَاهِمَ لَمْنَعِ الضُّيُوفِ أَوْ تَأْخِيرِهِمْ،
وقد استغل الشعراء هذا الأمر ووظفوه للدلالة على بخل هؤلاء، ومنهم العكوك⁽¹⁾ في قوله:

أَقَامُوا الدَّيْدَانَ عَلَى يَفَاعٍ وَقَالُوا لَا تَنَمَنَّ لِلدَّيْدَانِ⁽²⁾
فَإِنْ أَبْصَرْتَ شَخْصًا مِنْ بَعِيدٍ فَصَافِقْ بِالْبَنَانِ عَلَى الْبَنَانِ
تَرَاهُمْ خَشِيَّةَ الْأَضْيَافِ حُرْسًا يُصَلُّونَ الصَّلَاةَ بِإِذْنِ أَدَانِ⁽³⁾

فالأبيات تصور هؤلاء القوم وقد وضعوا رقبيا وطلبوا منه أن يظل يقظا خوفا من
اقتراب ضيف عليهم، ويكلفونه بإعطائهم إشارة تلفت انتباههم إلى اقتراب ضيف ما ليخفوا
طعامهم، ويصل الأمر بهم إلى حد أنهم يصلون صلاتهم بدون أذان، ويمتنعون عن الكلام؛
خشية سماع الضيف صوتهم وحضوره عندهم، ويظهرون انشغالهم لينصرف عنهم ضيفهم،
وهي صورة ساخرة لهؤلاء القوم الذين حلّ عليهم العكوك ولم يكرموا.

(1) علي بن جبلة بن مسلم، (ت 213هـ)، ولد قرب بغداد، أحد فحول الشعراء المبرزين، كان من الموالي، ولد أعمى
وأسود البشرة، لقبه الأصمعي العكوك لسمنته وغلظه، كان أكثر شعره في مدح أبي دلف. انظر ابن خلكان: وفيات
الأعيان، 3/350-353. الذهبي، شمس الدين محمد: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، بيروت،
مؤسسة الرسالة، 1990، 10/292-294. الصفدي: الوافي بالوفيات، 20/171-172. الزركلي: كتاب الأعلام،
4/268.

(2) الديدبان: الحارس، الرقيب ويكون في الطليعة. اليفاع: المشرف من الأرض والجبل. لسان العرب، مادة ديب ويفع.

(3) الأصبهاني: الأغاني، 20/45.

ويرسم جحظة في لوحة أخرى صاحباً له ذهب لزيارته، يقول:

وَلِي صَاحِبٌ زُرْتُهُ لِّلسَّلَامِ فَقَابَلَنِي بِالحِجَابِ الصَّارِحِ
وَقَالُوا تَغَيَّبَ عَن دَارِهِ لَخَوْفٍ غَرِيمٍ مُلِحٍّ وَقَاحِ
وَأَوْ كَانَ فِي دَارِهِ غَائِبًا لِأَدْخَانِي أَهْلُهُ لِلنَّكَاحِ⁽¹⁾

فهذا الصَّاحِبُ تَغَيَّبَ عَن بَيْتِهِ، وَتَرَكَ الحِجَابَ يعلِّلون سبب غيابه بخوفه من ضيافة شخص محتاج، ويسخر جحظة من هذا البخيل الذي يغار على طعامه ولا يغار على عرضه.

وكثيراً ما يطلب البخلاء من خدامهم إخبار الزَّائِر أَنَّهُم غير موجودين، أو أَنَّهُم نيام؛

هرباً من واجب الضيافة، ومن ذلك قول جحظة:

قُلْتُ لِلْحَاجِبِ لَمَّا رَدَّتْني عَنهُ بِجَهْدِهِ
وَتَأَلَّى أَنَّهُ قَدْ نَا مَ مِنْ إِيْمَانِ كَدِّهِ⁽²⁾
أُنْعَسَا نَامَ رَبُّ البَيْتِ تِ أَمْ نَامَ لِعبْدِهِ⁽³⁾

فهذا الحاجب قد جهَّز العذر لسَيِّدِهِ عَن اِمتناعه استقبال ضيوفه، فهو متعب نائم من

طول العمل والكد، بيد أن جحظة يرى أن سبب نومه خوفه من ضيوف يأتون إليه يكلفونه.

وشبيه ذلك وصف أبي بصير في لوحة شعريّة ساخرة استقبال صاحب له عندما ذهب

لزيارته، حيث كان في استقباله غلامه الذي ادَّعى بأنّه نائم، يقول:

(1) الأصبهاني: الأغاني، ص 65.

(2) تألى: حلف. لسان العرب، مادة ألي.

(3) البرمكي: الديوان، ص 82.

قَدْ أَتَيْتَكَ لِلسَّلَامِ فَصَادَفَ — نا على غير ما عهدنا الغلاما
وَسَأَلْنَاهُ عَنْكَ فَاعْتَلَّ بِالنُّومِ م وما كان منكرا أن تتاما
غَيْرَ أَنْ الْجَوَابَ كَانَ جَوَابًا سَيِّئًا يُعَقِّبُ الصَّديقَ احْتِشَامًا
وَأَنْصَرَفْنَا نُوجِّهُ الْعُذْرَ إِلَّا أن في مُضْمَرِ الْقُلُوبِ اضْطِرَامًا⁽¹⁾

فليس النوم عيبا ولا جريمة، لكن جواب الغلام كان يكشف عن عذر باطل، فليس النوم هو ما منع سيده من استقبالهم، بل بخله وخوفه من أن يقدم لهم شيئا، وهي صورة تتبع فيها الشاعر لحظة استقبال هذا البخيل لضيفه، ورد غلام هذا البخيل وتعلله بنوم صاحبه، وانصراف الضيف بحسرة وألم.

من كل ما تقدم يظهر مدى اهتمام الشعراء بتصوير بخلاء الضيافة والاستقبال، وحرصهم على رسم تصرفاتهم ومسالكهم، وتتبعها بصور إبداعية تدلل على شح هؤلاء البخلاء، فذاك البخيل يدعي الصيام خوفا على طعامه، وذاك يحلل الطعام له ويحرمه على ضيوفه، وهذا يفر من ضيوفه أو يدعي النوم، وآخر يضع الحجاب على بيته يمنعون الضيوف والمحتاجين. ويلاحظ أن كثيرا من هذه الصور جاءت بأساليب ساخرة مضحكة؛ مما كتب لها الانتشار والبقاء، بل وبقي بعضها حتى اليوم على ألسنة الناس يتندرون بها.

(1) الجاحظ، عمرو بن بحر: رسائل الجاحظ (الرسائل السياسية) تقديم وشرح: علي أبو ملحم، ط1، بيروت، دار وكتبة الهلال، 1987، ص582.

صورة بخيل المال:

وهي من صور البخل التي ظهرت في العصر العباسي بوضوح، وقد عرف أصحاب هذه الفئة -التي تعدّ أقلّ من غيرها من الفئات التي اشتهرت بالبخل- بتخزين المال والتفتير في بذله، ومن ذلك قول بشار بن برد:

مُولَيْنَا عَلَى الْأُمَمَاتِ جَلْدٌ عَلَى وَجَلٍ فَدِرْهُمُهُ قَيْوُدٌ
يَخَالُ الْبُخْلَ مُقْتَرَضًا عَلَيْهِ فَيَجْمَدُ مِثْلَ مَا جَمَدَ الْحَدِيدُ⁽¹⁾

فهو يرسم لبخيله صورة متناقضة، فعلى الرغم من أنه يصبر على الشدائد والصعاب، إلا أنه لا يطيق أن يبذل من ماله، معتقدا أن البخل مكتوب عليه لا يستطيع الفكك منه.

ويرسم في بيته الآتي صورة للبخيل الذي يمسك ماله، يقول:

إِذَا خَزَنَ الْمَالَ الْبَخِيلُ فَإِنَّمَا خَزَانُهُ خَطِيئَةٌ وَدَرُوعٌ⁽²⁾

فأموال هذا البخيل مخزونة محمية ومقفل عليها بإحكام، وتحيط بها الرماح والدروع لتحرسها من المحتاجين لها.

وذهب أبو الشمقمق بعيدا في هجاء شخص اسمه مبعد، وذلك حين يعرض لنا صورة

بشعة لبخله في قوله:

(1) بشار: الديوان، ص356.

(2) بشار: الديوان، ص556. الخطية: الرماح المنسوبة إلى الخط. لسان العرب، مادة خطط.

يَا مَنْ يُؤْمَلُ مُبْعَدًا مِنْ بَيْنِ أَهْلِ زَمَانِهِ
لَوْ كَانَ فِي اسْتِكَ دِرْهَمٌ لَأَسْتَلَّهُ بِلِسَانِهِ⁽¹⁾

فمن كان يأمل أن يجود عليه مبعد بشيء فهو واهم، فهو لشدة بخله لو رأى درهما في
دبر شخص لذهب يخرجه بلسانه، وهو بهذه الصورة قد أوغل في تحقيره.

وكثيرا ما كان الناس يخافون وصف الآخرين لهم بالبخل، فقد ذكر صاحب الأغاني أن
سعيدا بن سلم⁽²⁾ شقّ عليه هجاء مسلم بن الوليد له بعد أن قدمت عليه امرأة من اليمامة، ومدحته
ومدحته بأبيات، فكانت أبيات مسلم علقما في صدره، حيث قال فيها:

وَأَحْبَبْتُ مِنْ حُبِّهَا الْبَاخِلِيَّ نَ حَتَّى وَمَقَّتْ ابْنُ سَلْمٍ سَعِيدَا⁽³⁾
إِذَا سِيلَ عُرْقَا كَسَا وَجْهَهُ ثِيَابَا مِنْ اللَّؤْمِ حُمْرَا وَسَوْدَا
يَغِيرُ عَلَى الْمَالِ فَعَلَ الْجَوَادِ وَتَأْبَى خَلَائِقُهُ أَنْ يَجُودَا⁽⁴⁾

فسعيد هذا يحمر وجهه ويسود إن طلب إليه البذل، وتزداد صورته قتامة حين يصوره
حصانا سريعا في طلب المال والبحث عنه، لكنه بخيل في بذله والإنفاق منه، وقد زاد من قوة
هذه الصورة التي رسمها لسعيد توظيفه اللون والحركة في التعبير عن سلوكه المتناقض عندما
يطلب إليه المعروف والعطاء، وعندما يبحث هو عن المال.

(1) البغدادي: البخلاء، ص97.

(2) سعيد بن مسلم/سلم بن قتيبة، (ت 217هـ)، كان سيّدا كبيرا ممدحا، ولي مناطق كثيرة منها أرمينية والموصل والسند.
والسند. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 4/88-90. الصفدي: الوافي بالوفيات، 15/140.

(3) ومق: أحب. لسان العرب، مادة ومق.

(4) ابن الوليد، مسلم: الديوان، تحقيق وشرح سامي الدهان، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1970، ص270.

وأنكر ابن الروميّ على أولئك الأغنياء الذين بازدياد أموالهم يزدادون بخلا، على غير

ما هو مرجوّ منهم، يقول:

إِذَا غَمَرَ الْمَالَ الْبَخِيلَ وَجَدَّتْهُ يَرِيدُ بِهِ يُبْسًا وَإِنْ ظَنَّ يَرْطُبُ
وَلَيْسَ عَجِيْبًا ذَاكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ إِذَا غَمَرَ الْمَاءَ الْحِجَارَةَ تَصْلُبُ⁽¹⁾

فهذا البخيل الذي كلما ازداد ماله ازداد بخلا وحرصا، كالحجارة التي تزداد صلابة كلما

غمرها الماء، والصلابة لفظ يحمل معنى التفتير والبخل.

وفي أبيات أخرى يرسم ابن الرومي صورة بشعة لإسماعيل بن بلبل⁽²⁾، ويتهمه بأنه

يجود بعرضه ولكنه يبخل بالنزر القليل من ماله وطعامه، يقول:

أَبُوهُ بُلْبُلٌ ضَاوٍ وَيَكْنَى أَبَا صَقْرٍ فَكَيْفُتُهُ مُحَالَةٌ
يَجُودُ بِعَرْضِهِ لِلشَّتْمِ عَفْوًا وَيَبْخُلُ بِالْقَلَامَةِ وَالْخَلَالَةِ⁽³⁾
وَلِلْأَوْغَادِ أَمْوَالُ تَرَاهَا مَصَوْنَاتٍ بِأَعْرَاضِ مُذَالَةٍ
وَلَمْ يَكُ مَنْ نَمَاهُ أَبٌ كَرِيمٌ لِيَبْذُلَ عَرْضَهُ وَيَصُونَ مَالَهُ
تَمَحَّلَ نِسْبَةً أَعْيَتْ أَبَاهُ وَكَانَ الْمَرءُ يَعْجَزُ لَا الْمَحَالَةَ⁽⁴⁾

(1) جيدة، عبد الحميد: الهجاء عند ابن الرومي، بيروت، المكتب العالمي، 1974، ص306.

(2) إسماعيل بن بلبل الشيباني أبو الصقر الكاتب، كان بليغا كاتباً وشاعراً كريماً جواداً ممدحاً، ولي وزارة المعتمد سنة

265هـ، سجنه المعتضد وعذبه حتى مات. انظر الصفدي: الوافي بالوفيات، 60-58/9.

(3) الخلالة: بقية الطعام بين الأسنان. لسان العرب، مادة خلل.

(4) ابن الرومي: الديوان، 165/3.

فهو كوالده مستعد أن يوجد بشرفه لكنه يبخل بأمواله على غيره، ويحفظها ويخفيها عن المحتاجين، بل إنه يبخل بالشيء القليل ولو كان بقية طعام أخرجها من أسنانه، ومما زاد في بشاعة الصورة سخريته من نسبه الفاسد، فهو شحيح كشح آبائه وأجداده.

وفي صورة أخرى يبدع ابن الرومي في النيل من شخص كناه أبا جراشة، يقول:

مُحَكَّمٌ يَا ابْنَ جُرَاشَةَ	إِنَّ كَفَيْتَ أَكَّ لَقْفُ لُ
أَكَّ وَيُسْرَاكَ الْفَرَاشَةَ	فَعَمَّوْدُ الْقُقُ لِيْمَنَا
فَبَيْكَ إِلَّا بِالْحُشَاشَةِ ⁽¹⁾	لَيْسَ يَنْجُو الْفَلْسُ مِنْ كَفِّ
ضَاقَ اللهُ مَعَاشَةَ ⁽²⁾	ضَاقَ الصَّادِرُ بِخَيْلُ

فيداه قفل محكم الإغلاق لا يمكن أن تفتح لسائل ولا محتاج، وهو لبخله حريص على الفلّس الذي هو أقل قيمة من غيره من النقود، لدرجة أن الفلّس لا يخرج منه إلا بشق الأنفس، وبهذه الصورة الساخرة، وبتلك الألفاظ السهلة العذبة، وسم أبا جراشة بالشح، موظفا الألفاظ السهلة والتعابير البسيطة لتحقيق مراده.

ويقول دعبل مبيّنا صورة صنف من الناس البخلاء:

ظَاهِرَ الْوُدِّ لَيْسَ بِالتَّقْصِيرِ	وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجِبُكَ حُبًّا
أَلْحَقَ الْوُدَّ بِاللَّطِيفِ الْخَبِيرِ ⁽³⁾	فَإِذَا مَا سَأَلْتَهُ رُبْعَ فِلْسٍ

(1) الحشاشة: رمق بقية الروح. لسان العرب، مادة حشش.

(2) ابن الرومي: الديوان، 2/ 249.

(3) الخزاعي، دعبل: الديوان، ص 153.

فهذا الصنف من الناس يظهر حبه الشديد لك، لكنه عندما تحتاجه وتطلب إليه ولو ربع

فلس، يأخذ بحلف الأيمان، والاعتذار عن المساعدة، فأنه خبير بحاله، لطيف به وبوضعه.

يلاحظ مما سبق أن صورة بخيل المال ارتبطت ارتباطا وثيقا بالقيد الذي يقيد اليدين عن

البذل، وبالخزنة التي يقفل عليها بقفل من حديد محكم الإغلاق، وبالحجارة الصلبة كناية عن شدة

بخل البخلاء، وهي صور امتزجت بالسخرية والهجاء.

الهدايا:

شاعت في العصر العباسي عادة تقديم الهدايا بوصفها وسيلة من وسائل التواصل

الاجتماعي بين الناس، وقد كان تقديم الهدايا للخليفة في المناسبات مظهرا منتشرا آنذاك، حتى

أضحت الهدية نوعا من النفاق الاجتماعي، ووسيلة من وسائل الكسب للمهدى إليه، وعاملا

مهذرا للمال من ناحية المهدي، وقيمة الهدية ونوعها وحالتها من القضايا التي تناولها الشعراء

في هذا العصر، وغرضهم من ذلك الاستهزاء والسخرية من البخل والبخلاء، ولعل طبيعة

الحياة الاجتماعية في العصر العباسي فرضت هذا النوع من الشعر بعد أن نشأت طبقة من

التجار حرصت على أموالها ومنعتها من الآخرين، وحرصت على تقديم هدايا هزيلة لقيمة

لها⁽¹⁾.

وتنوعت هذه الهدايا التي كان يقدمها هؤلاء، فمنها ما كان حيوانا كالشاة والحمار

والخروف، ومنها ما كان لباسا كالطيلسان، ومنها ما كان آنية كالأقداح، ومنها ما يجلبه الحاج

معه كالخاتم والنعل وغيرها.

⁽¹⁾ انظر إبراهيم: الشعر الهزلي العباسي، ص 67.

وتنشر الهدايا بين الناس المحبة، وتزيد من الأواصر والقربى بينهم، يقول دعبل مينا

أثر الهدية في العلاقات بين الناس:

هُدَايَا النَّاسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ تَوْلَدُ فِي قُلُوبِهِمُ الْوِصَالَا
وَتُودِعُ فِي الضَّمِيرِ هَوَى وَوَدَا وَتَكْسُوهُمْ إِذَا حَضَرُوا جَمَالَا⁽¹⁾

ومن النماذج على هدايا الحيوان ذلك الخروف الذي أهدي لأبي الخطاب البهلي⁽²⁾،

يقول البهلي في وصف هذا الخروف:

أَهْدَى إِلَيْنَا مَعْمَرٌ خَرُوفَا كَانَ زَمَانَا عِنْدَهُ مَكْتُوفَا
يَعْلِفُهُ الْكَشِيحُ وَالسَّفُوفَا وَالْفَارِقُونَ بَعْدَهُ مَدُوفَا⁽³⁾
حَتَّى إِذَا مَا صَارَ مُسْتَجِيفَا أَهْدَى فَأَعْدَى قَصَابَا مَلُوفَا
جُلَّ جِلْدَا فَوْقَهُ وَصُوفَا وَكَانَ مِنْ فَعَالَةٍ مَوْصُوفَا⁽⁴⁾

فهذا الخروف هزيل نحيف، يعيش على الأدوية، وأضحى من هزاله لقلّة ما يأكل من

الطعام، كعود القصب النحيف الذي غطي بالجلد والصوف، وهي صورة ساخرة وظفها الشاعر

للنيل ممن أهدها هذا الخروف العليل.

(1) الخزاعي، دعبل: الديوان، ص 217.

(2) عمر بن عامر البهلي، بصري فصيح راجز، كان الأصمعي يتخذة حجة ويروي شعره. انظر ابن الجراح: الورقة، ص 64.

(3) الكشيح والسفوف والفارقون: أنواع من الأدوية يعرفها العرب قديما. لسان العرب، مادة كشح وسفوف وفرق. مدوفا: مخلوطا. لسان العرب، مادة دوف.

(4) ابن الجراح: الورقة، ص 64. جل: مسن كبير، والجلل من الأضداد وتعني العظيم والصغير. لسان العرب، مادة جل. جلل.

ويرسم بشار في صورة ساخرة هزال شاة أهداها إليه صديق من بني منقر من تميم، وقد كانت هذه الشاة هزيلة، وكان هذا الصديق قد اعتاد أن يرسل إليه كل عام شاة ليضحّي بها، يقول بشار:

وَضَعْتُ يَمِينِي عَلَى ظَهْرِهَا فَخَلَّتْ حَرَاقِفُهَا جَنَدًا⁽¹⁾
 وَأَهْوَتْ شِمَالِي لِعُرْقُوبِهَا فَخَلَّتْ عَرَاقِبِيهَا مِغْزَلًا⁽²⁾
 وَقَابَلْتُ إِلَيْتَهَا بَعْدَ ذَا فَشَبَّهْتُ عُصْعَصَهَا مِئْجَلًا⁽³⁾

فحين يضع يده ليلمس جسمها لا يجد إلّا عظما كالحجارة الصلبة، وشرابيينها كالمغزل الصلب، وأصل ذنبها كمنجل الحديد، وهو بذلك يجعل منها قطعة من حديد صلب، لا لحم عليها ولا دهون. وقد أورد صاحب الأغاني أنّ بشاراً بن برد بعث بهذه الأبيات إلى الرجل، فلمّا وصلت دعاء بوكيله وقال له: ويلك، تعلم أنّي أفندي من بشار مما أعطيته وتوقعني في لسانه، اذهب فاشتر أضحية وإذا قدرت أن تكون مثل الفيل فافعل، وابتع بها إليه⁽⁴⁾.

ويتفنن دعبل في تصوير برذون أهدي له من صديق، يقول فيه⁽⁵⁾:

وَأَهْدَيْتَهُ زَمِينًا فَانِيَا فَلَا لِلرُّكُوبِ وَلَا لِلِاسْتَمْنِ
 أَبَا الْفَضْلِ ذَمًّا وَعُرْمًا مَعَا فَمَا كُنْتَ تَرْجُو بِهِذَا الْعَبْنِ؟⁽⁶⁾

(1) الحراقف: جمع حرقفة وهي رأس الورك. لسان العرب، مادة حرقف. الجندل: الحجارة. لسان العرب، مادة جندل.

(2) العرقوب: وتر غليظ فوق العقب (المؤخرة). لسان العرب، مادة عرقب.

(3) بشار: الديوان، ص 575-576. العصص: أصل الذنب. لسان العرب، مادة عصص.

(4) الأصبهاني: الأغاني، 227/3.

(5) دعبل: الديوان، ص 266.

(6) البرذون: الدابة. لسان العرب، مادة برذن.

فهو برزون هرم ضعيف لا يصلح للركوب ولا للبيع، فمن يقدم مثل هذه الهدية السيئة لا يستحق إلا الذم واللوم والعتاب.

ويلوم ابن بسام ابن عمّه الذي كان قد استهداه حمارا فلم يجبه، فقال بلهجة ساخرة مصوّرا حال حماره:

بَعَثْتُ لِأَسْتَهْدِيكَ عَيْرًا فَلَمْ تَجِدْ وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْعَيْرَ صَارَ لَنَا صِهْرًا⁽¹⁾

فهذا الحمار الذي ضنّ به على ابن بسام ومنعه عنه، أضحى كالصهر في منزلته.

ومن أهمّ الهدايا التي تعرّض لها الشعراء وصوروها أبرع تصوير الطّيلسان والشّاة، ويعدّ الشاعر إسماعيل بن إبراهيم الحمدوي رائدا في هذا الجانب، فقد توزّع شعره على موضوعين رئيسين، هما طيلسان ابن حرب⁽²⁾ وشاة سعيد، وقد بنى شهرته وذاع صيته بهذين الموضوعين، فأضحى يضرب بهذه الشّاة المثل بالضعف والهزال، وبهذا الطّيلسان القدم والتلف⁽³⁾، والراجح أنّ الحمدوي أراد أن يحمل رسالة اجتماعية ناقدة بأسلوب ساخر، فلم يكن الطّيلسان مقصودا بذاته ولا الشّاة، وإنّما أراد أن يعرّض بالبخل والبخلاء، الذين ازدادوا في هذا العصر، وربما يكون قد تأثر بشعر بشار في ذلك عندما وصف الشّاة التي أهداها له صديقه على ما مرّ آنفا، وهذه الشّاة أهداها إليه أحد موسري البصرة ليضحّي بها في العيد واسمه سعيد، بيد أنّها كانت هزيلة، ولم تعجب الحمدوي، فأحسن في رسم صورتها بأسلوب هزليّ،

(1) المسعودي: مروج الذهب، 300/4.

(2) أحمد بن حرب ابن أخ يزيد المهلبي، وكان قد وهب اسماعيل الحمدوي الشاعر الأديب طيلسانا باليا، فعلم الحمدوي فيه مقاطع عديدة وظريفة. انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، 95/7.

(3) انظر المعبيد: محمد جبار، شعراء بصرى من القرن الثالث الهجري، بغداد، مركز دراسات الخليج العربي، 1977، ص113.

ساخرا من البخل والبخلاء، يقول الثعالبي في كتابه ثمار القلوب: "كان المثل يضرب بشاة منيع، ثم تحول المثل إلى شاة سعيد؛ لكثرة ما قال الحمدويّ فيها، وتسييره الملح في وصف هزالها"⁽¹⁾.

بيد أن ما وصل من شعره في هذه الشاة فقد أكثره، ولم يصل سوى ثماني مقطعات في ثلاثة وأربعين بيتاً⁽²⁾، يقول الحمدويّ واصفا ضعف هذه الشاة بأسلوب ساخر:

مَا أَرَىٰ إِنِّ ذُبِحَتْ شَاةٌ سَعِيدٍ حَاصِلًا فِي يَدَيَّ غَيْرَ الْإِهَابِ
لَيْسَ إِلَّا عِظَامُهَا لَوْ تَرَاهَا قُلْتُ: هَذَا أَدَارُنْ فِي جِرَابِ⁽³⁾

فلو ذبحها لن يجد لحما عليها يأكله، فهي جلد وعظم كالصخر الصلب، ثم يعرض بصاحبها الذي لم يقدم لها طعاما تأكله غير التراب، مما جعلها تتشد معبرة عن نفاذ صبرها من العذاب الذي تعيشه مع هذا المالك البخيل، يقول:

كَمْ تَغَنَّتُ بِحُرْقَةٍ وَنَحِيبٍ لَمْ تَدُقْ غَيْرَ سَفِّ مَحْضِ التُّرَابِ
رَبِّ لَا صَبْرَ لِي عَلَىٰ ذَا الْعَذَابِ بُلَيْتُ مُهْجَتِي وَأُودَىٰ شَبَابِي⁽⁴⁾

ويشخصها إنسانا يغني عندما يرى طعامه كما تغني عندما ترى العلف، فرحة برؤية هذا الطعام الذي لم تره عند سعيد، يقول:

لَوْ أَنَّهَا أَبْصَرَتْ فِي نَوْمِهَا عَلْفًا غَنَّتْ لَهُ وَدُمُوعُ الْعَيْنِ تَنْحَدِرُ

(1) الثعالبي، عبد الملك: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، 1985، ص375.

(2) انظر المعبيد: شعراء بصريون من القرن الثالث الهجري، ص118.

(3) الثعالبي: ثمار القلوب، ص376.

(4) المصدر السابق، ص376.

يا مانعي لذة الدنيا بأجمعها إنِّي ليقنُّني من وجهك النَّظر⁽¹⁾

وهذه صورة تثير الضحك والألم على الحال الذي عاشته هذه الشاة عند سعيد، حتى وصل الأمر بها أنها لا تخرج بولا ولا روئا، وهو بذلك يكني عن جوعها، رامزا بذلك إلى شدة بخل صاحب هذه الشاة.

ويزداد جمال الصورة حين تبدو لنا هذه الشاة الهدية من عظام نخرات، لا لحم عليها، يقول الحمدي:

شاةُ سوءٍ من جُودٍ وعظامٍ نخرات⁽²⁾

وقد تناول الشعراء الملابس التي كانت تهدي بين الناس، ومن الشعراء الذين عرفوا بهذا اللون الحمدي، واشتهر بمقطوعاته التي تناول فيها هدية أهداها إليه أحمد بن حرب، وهي الطيلسان، وكان ابن حرب من المحسنين على الحمدي، وله فيه مدائح كثيرة، فوهبه طيلسانا أخضر، فلم يعجبه ووجد فيه تلفا، فأخذ ينظم فيه الشعر، فانتشر شعره في الآفاق حتى تبعه بعض الشعراء كابن الرومي، وقد ذكره ابن سكرة الهاشمي⁽³⁾ في هجائه للمتنبّي حين قال:

يا ليأتَ خصبَكَ عندي وحالٌ عنْدَكَ جَدْبِي

(1) الصفدي: الوافي بالوفيات، 48/9.

(2) العظام النخرات: البالية. لسان العرب، مادة نخر. مقتبسة من قوله تعالى: جَدْبٌ □ □ جِ النَّازِعَاتِ 11.

(3) محمد بن عبد الله بن محمد الهاشمي بن سكرة الأديب، (ت 385)، بغدادي، ضليع في الأدب والشعر، أكثر من شعر المجون والسخف، قيل إن ديوانه زاد على خمسين ألف بيت شعر. انظر الصفدي: الوافي بالوفيات، 253-251/3.

حَتَّى أَرَاكَ مُرْدَى لَطَيْسَانَ ابْنِ حَرْبِي⁽¹⁾

وأما عدد المقطوعات التي تناولها الحمدي في طيلسانه، فيرى الثعالبي والحصري والصفدي أنه عمل فيه مائتي مقطوعة، وقد وصل منها ثلاث وثلاثون مقطوعة في مائة وتسعة وعشرين بيتاً⁽²⁾.

وأشعار الحمدي في هذا الطيلسان أشعار ظريفة، ومن ذلك قوله واصفاً هذا الطيلسان بالمرريض الذي أعياه المرض بحيث أصبح يخاف هبوب الرياح، يقول:

أَيَا طَيْلَسَانِي أَعْيَيْتَ طَيْبِي أَسِيلُ بِجِسْمِكَ أَمْ دَاءُ حُوبٍ
وَيَا رِيحُ صَيَّرْتَنِي أَتَقِيكَ وَقَدْ كُنْتُ لَا أَتَّقِي أَنْ تَهْبِي⁽³⁾

وفي مقطوعة أخرى يصف هذا الطيلسان بالقديم الرث، حتى كأنه من زمن قوم نوح، ويورث جيلاً بعد جيل، ولا ينفع فيه الرق من قدمه، يقول الحمدي:

قُلْ لِابْنِ حَرْبٍ طَيْلَسَا نُكَ قَوْمُ نُوْحٍ مِنْهُ أُحْدِثُ
أَفْنَى الْقُرُونِ وَلَمْ يَزَلْ عَمَّنْ مَضَى مِنْ قَبْلِ يورثُ
وَإِذَا الْعِيُونَ لَحَظْنَ فَكَأَنَّهُ بِاللَّحْظِ يُحْرَثُ
يُودِي إِذَا لَمْ أَرْقُ فَإِذَا رَقَوْتُ فَلَيْسَ يَلْبَثُ⁽⁴⁾

(1) البغدادي، عبد القادر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط4، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1997، 347/2-352. الزركلي: الأعلام، 1/115.

(2) الثعالبي: ثمار القلوب، ص602. الحصري: زهر الآداب، 591/2. الصفدي: الوافي بالوفيات، 51/9.

(3) الثعالبي: ثمار القلوب، ص604.

(4) الحصري: زهر الآداب، 591/2-592.

والحمدويّ يعمد إلى وصف هذا الطّيلسان بطرق كثيرة، تنثير التّهكّم والسّخرية، وربما أراد بذلك أن يضحك النّاس على من يهجومهم بسبب بخلهم ودناءة نفوسهم، وقلة مساعدتهم للمحتاجين.

ويعمد الحمدويّ إلى تكرار بعض الصّور أحيانا في مقطوعاته، ويغير في قوالها أحيانا، فهو في مقطوعة أخرى يعبر عن طول عمر هذا الطّيلسان بأسلوب آخر، فقد ملّ من صحبة الزّمان، وهو أوهن وأضعف من بيت العنكبوت، ويزيد في إبراز وهنه من خلال ذكره بأنّ مجرد التّفنّس فيه أو التّحنح يجعله ينشقّ ويتمزّق، ولا يكتفي بذلك بل إنّه لو أرسل وحده للرّفو لعرف طريقه من كثرة ما رفاه صاحبه، وهو بذلك يبالغ في وصف ضعف هذا الطّيلسان، يقول الحمدويّ:

يا بن حربٍ كسوتني طيلسانا مَلَّ مِنْ صُحْبَةِ الزَّمَانِ وَصَدَا
فحسبنا نسج العناكب إن قيدا سَ إِلَى نَسْجِ طَيْلَسَانِكَ قَدَا
طال تردّاهُ إلى الرّفو حتّى لَو بَعَثْتَاهُ وَحَدَهُ لَتَهْدَى⁽¹⁾

وفي مقطوعة أخرى يرى الحمدويّ أنّ في هذا الطّيلسان العبرة والمعتبر، فهو قد اهترأ بحيث أنّه تحوّل لونه من كثرة الرّفو فيه من أبيض إلى أسود، يقول:

فيما كسانيه ابن حربٍ مُعْتَبَر فانظر إليه إنّه إحدى الكبر⁽²⁾
قد كان أبيضَ ثم ما زلنا به نرّفوه، حتّى اسودَّ من صدأ الإبر⁽³⁾

(1) الثعالبي: ثمار القلوب، ص433.

(2) اقتباس من الآية (35) من سورة المدثر، وهي قوله تعالى: ﴿ج. □ □ □ ج.﴾.

(3) الثعالبي: ثمار القلوب، ص602.

ويعدّد الحمديّ بأسلوبٍ ساخر فضائل هذا الطيّلسان، فهو صاحب أيادٍ عليه لا تحصى، فبسببه أضحى أشعر النَّاس، وذا قيمة في مجتمعه بعد أن كان غير معروف فيه، بل إنّ النَّاس قد خافوه وخافوا شعره، وحاز بسببه ملابس كثيرة، يقول الحمديّ:

طَيْلَسَانٌ لِابْنِ حَرْبٍ	ذُو أَيَادٍ لَيْسَ تُحْصَى
أَنَا فِيهِ أَشْعَرُ النَّاسِ	سِ إِذَا مَا الشُّعْرُ نَصَّأ
وَأَرَانِي صِرْتُ أَدْنَى	بَعْدَمَا قَدْ كُنْتُ أَقْصَى
وَأَتَّقَانِي النَّاسُ وَازْدَا	دُوا عَلَى شِعْرِي حَرْصَا
وَأَكْمُ قَدْ حَازَ لِي أُرْدُ	يَةً تَتَّوْرِي وَقُمْصَا

وقد نهج ابن الروميّ نهج الحمديّ في وصف هذا الطيّلسان، فهو خلق مهترئ، يشكو

من الرياح لوهنه، ويتمزق سريعاً، يقول ابن الروميّ:

طَيْلَسَانٌ إِذَا تَنَفَّسَتْ فِيهِ	صَاحَ يَشْكُو الصَّبَا وَيَشْكُو الْجَنُوبَا ⁽¹⁾
تَتَغَنَّيْ إِحْدَى نَوَاحِيهِ صَوْتَا	فَتَشُقُّ الأُخْرَى عَلَيْهِ الْجُيُوبَا
طَالَ رَفْوِي لَهُ فَأَوْدَى بِكَسْبِي	يَا بِنَ حَرْبٍ تَرَكْتَنِي مَحْرُوبَا ⁽²⁾

ولكثرة النَّقُوب فيه وكثرة رفوه بات لا يصلح للرفو، ويعرّض بابت حرب الذي جاد به

عليه، ويعدّد هذا الجود منه إعلان حرب عليه، يقول:

(1) المحروب: الذي فقد ماله ومتاعه. لسان العرب، مادة حرب.

(2) ابن الرومي: الديوان، 148/1.

لِي طَيْلَسَانَ لَيْسَ يَتْرُكُ لِي رَفَوِي لَهُ مَالًا وَلَا نَشَابًا⁽¹⁾
 طَرِبْتُ تُغْنِي مِنْهُ نَاحِيَةً وَتَشُقُّ أُخْرَى جِيْبَهَا طَرِبًا
 كَيْفَ السَّيْلُ إِلَى عِمَارَتِهِ وَإِذَا عَمَّرْتُ خَرَابَهُ خَرِبًا
 كَانَ ابْنُ حَرْبٍ حِينَ جَادَ بِهِ لَا شَكَّ فِيهِ يُرِيدُ بِي الْحَرَبَا⁽²⁾

ويصفه في مقطوعة أخرى ثابتا أمام هبات الرياح القويّة، وعندما يتساءل المرء عن سرّ ذلك، يكشف ابن الرومي أنّ السرّ في ذلك بأنّ هذا الطيلسان خلق مهترئ، تكثر فيه النقوب بحيث يسمح لهذه الرياح أن تخترقه، ويزيد الأمر سوءا حين لا يستطيع أن يلمسه ابن الروميّ بيديه كأنه غير موجود، يقول ابن الروميّ:

وَلِي طَيْلَسَانٌ نَاحِلٌ غَيْرَ أَنَّهُ ثَبُوتٌ لِهَبَّاتِ الرِّيَّاحِ الزَّرْعَارِعِ⁽³⁾
 وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُ مُتَعَتِّكٌ يُخَلِّي سَبِيلَ الرِّيْحِ غَيْرَ مُنَازِعِ⁽⁴⁾
 أَرَاهُ كَضَوْءِ الشَّمْسِ بِالْعَيْنِ رُؤْيَةً وَيَمْنَعُنِي مِنْ لَمْسِهِ بِالأَصَابِعِ
 شَكَأ تَقَلَّ اسْمُ الطَّيْلَسَانِ لِضَعْفِهِ فَسَمَّيْتُهُ سَاجَا، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعِي⁽⁵⁾

وهكذا فإنّ شعراء هذين القرنين دخلوا في أعماق الحياة الاجتماعيّة، واستطاعوا تصوير

بخل بعض الناس في هذا العصر في مجال الهدايا بأساليب ظريفة ومؤثرة.

(1) النشب: المال والعقار. لسان العرب، مادة نشب.

(2) ابن الرومي: الديوان، 128/1-129.

(3) الرياح الزعازع: الشديدة التي تحرك الأشياء. لسان العرب، مادة زعع.

(4) متعتك: احمر من القدم وطول العهد. لسان العرب، مادة عتك.

(5) ابن الرومي: الديوان، 350/2.

الفصل الثاني

الأبعاد النفسية والاجتماعية والمكانية في البخل

البعد النفسي في شعر البخل

تعد الحالة النفسية للبخل وسيلة وعنوانا للشعراء، ومحطة نقد يدخلون بها في هجاء خصومهم والسخرية منهم، فشعور البخل بالألم عندما يتناول الضيف من طعامه، وإصابته بالمرض وموته، هي صورة تتكرر عند شعراء هذه المرحلة، وقد قيل لبخيل: من أشجع الناس؟ قال: من سمع وقع أضرار الناس على طعامه ولم تنتشق مرارته⁽¹⁾، وتصدى لعرض هذه الملامح النفسية عدد من الشعراء ومنهم بشار، حيث يقول:

فَلَا تَبْخَلَا بُخْلَ ابْنِ قَزَعَةَ إِنَّهُ مَخَافَةَ أَنْ يُرْجَى نَدَاهُ حَزِينُ
كَأَنَّ عَيْبِدَ اللَّهِ لَمْ يَلْقَ مَا جِدا وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ الْمَكْرُمَاتِ تَكُونُ
إِذَا جِئْتُهُ فِي حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا وَأَنْتَ كَمِينُ
إِذَا سَلَّمَ الْمِسْكِينُ طَارَ فُؤَادُهُ مَخَافَةَ سُؤْلِ وَعَتْرَاهُ جُبُونُ⁽²⁾

فبشار هنا - وهذا من التجديد الذي حسب له أسبقية فيه - لم يكتف بالصاق صفة البخل بابن قزعة، ولكنه تجاوز ذلك بأن أذع في وصفه، وشنع به أيما تشنيع، ورسم له صورة تثير السخرية والاستهزاء والعجب، مستعينا بوصف حالته المهجور النفسية، فهو من ناحية في حزن وتجهم دائم، خوفا من أن يقصد جنباه أحد لنيل عطائه، وهو - من ناحية ثانية - يغلّق بابه في وجه ذوي الحاجات - إن هم قصدوه - ولا يستطيع أحد منهم أن يلقاه؛ لفرط حذره واعتزاله الناس، إلا وهو كمين، وإذا حدث أن صادفه مسكين وسلم عليه طار فؤاده وخرج عن طوره

(1) الأبيشي، شهاب الدين محمد: المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق مفيد قميحة، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، العلمية، 1986، 375/1.

(2) ابن برد: الديوان، ص615.

وتظاهر بالجنون خوفاً من أن يسأله هذا المسكين حاجة. وهذا ديدنه دائماً، حتى كأنه لم ير رجلاً كريماً ماجداً في حياته، بل وكأنه لا يعرف أن هناك شيئاً اسمه الكرم.

ويتخذ أبو نواس من ازدواجية الحالة النفسية عند أبي الفضل وسيلة للسخرية منه،

يقول:

رَأَيْتُ الْفَضْلَ مُكْتَتِبًا يُنَاغِي الْخُبْزَ وَالسَّمَكَا⁽¹⁾
فَقَطَّبَ حِينَ أَبْصَرْتَنِي وَنَكَّسَ رَأْسَهُ وَبَكَى
فَلَمَّا أَنْ حَافَّتْ لَهُ بَلَّأَنِي صَائِمٌ ضَاحِكَا⁽²⁾

فهو شديد الحزن، كثير البكاء لحظة رؤيته لأبي نواس؛ خوفاً على طعامه منه، لكن بكاءه هذا أضحى فرحاً وضحكاً عندما علم أن صاحبه صائم لن يتناول من طعامه، وبازدواجية الضحك والبكاء عند أبي الفضل، وبوصفه حالته النفسية المتقلبة، استطاع أبو نواس أن يؤكد بخله.

ويكشف مسلم بن الوليد عن الحالة النفسية التي ألمت بممدوحه عندما جاءه مادحاً،

يقول:

أَطْرَقَ لَمَّا أَتَيْتَ مُتَدِحًا فَلَمْ يَقُلْ لَّا فَضْلاً عَلَيَّ نَعَم
وَأَرْبَدَّ مِنْ خَشْيَةِ السُّؤَالِ كَمَا يَرْبُدُّ عِنْدَ الْوَقَاةِ ذُو أَلَمٍ
فَخَفْتُ إِنْ مَاتَ أَنْ أَقَادَ بِهِ فَقُمْتُ أَبْغَى النَّجَاةَ مِنْ أَمَمٍ

(1) يناغي: يكلم ويغازل. من المناغة. لسان العرب: مادة نغي.

(2) أبو نواس: الديوان، ص 403.

لَوْ أَنَّ كَنْزَ الْبِلَادِ فِي يَدِهِ لَمْ يَدَعِ الْاِعْتِذَارَ بِالْعَدَمِ⁽¹⁾

فهو لخوفه من أن يقدم شيئاً لضيفه الذي جاءه مادحاً، يطرق رأسه، ويسود وجهه ويزرق؛ خشية أن يطلب إليه مسلم حاجة، ويصل به الحد أن يصبح كمن حضرته الوفاة، ويهرع لتقديم الأعذار والعلل لمادحه، ولو كان يملك كنوز البلاد، ولا شك أن خفض الرأس، واسوداد الوجه، ووصفه بالعليل الذي شارف على الموت عند الطلب إليه، كلها تعابير نفسية أسهمت في كشف تلك الدخائل الخفية التي تدخل في نفسية بخيله.

وقد بلغ من شدة حرص بعضهم وبخلهم أنهم كانوا يُقسمون بالرَّغيفِ قسماً يبرّون به، بل ويغارون على خبزهم أكثر مما يغارون على عرضهم وحرمتهم، يقول أبو تمام في مثل هذا الصنف:

صَدَّقَ أَلَيْتَهُ إِنْ قَالَ مُجْتَهِدًا لَا وَالرَّغِيفِ فَذَاكَ الْبِرُّ مِنْ قَسَمِهِ⁽²⁾
وَإِنْ هَمَمْتَ بِهِ فَافْتُكْ بِخُبْزَتِهِ فَإِنَّ مَوْقَعَهَا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمِهِ⁽³⁾

فخبز هذا البخيل غال على نفسه، بل هو عضو من جسده يتألم أشد الألم إن أكل ضيف منه.

وإلى مثل ذلك ذهب دعبل الخزاعي في وصف الحالة النفسية لأبي المقاتل حين يهَمُّ

ضيف بتناول طعامه، يقول واصفاً ذلك في لوحة فنيّة معبرة:

(1) ابن الوليد، مسلم: الديوان، ص141.

(2) أليته: قسمه ويمينه. لسان العرب، مادة ألي.

(3) التبريزي، محمد بن علي شرح ديوان أبي تمام، تقديم راجي الأسمر، ط2، بيروت، دار الكتاب العربي، 1994، ص368.

اسْتَبَقَ وَدَّ أَبِي الْمُقْبَا	تِلِ حِينَ تَأْكُلُ مِنْ طَعَامِهِ
الْمَمُوتِ أَيْسَرُ عِنْدَهُ	مِنْ مَضْغِ ضَيْفٍ وَالتَّقَامِ
وَتَرَاهُ مِنْ خَوْفِ النَّزِي	لِ بِهِ يُرَوِّعُ فِي مَنْامِهِ
سِيَّانَ كَسْرُ رَغِيفِهِ	أَوْ كَسْرُ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ
لَا تَكْسِرَنَّ رَغِيفَهُ	إِنْ كُنْتَ تَرْغَبُ فِي كَلَامِهِ
وَإِذَا مَرَرْتَ بَبَابِهِ	فاحفظ رَغِيفَكَ مِنْ غَلَامِهِ ⁽¹⁾

ازدانت هذه اللوحة الفنية بمشاعر ومظاهر نفسية انتابت هذا البخيل، فالموت عنده أهون من تناول الضيف لطعامه، وهو كثير القلق والجزع في منامه خوفا من النزلاء، وهو شديد الألم على فقدان رغيفه لدرجة أن كسر الضيف له ككسر عظامه، فالرغيف قطعة من جسده، ويوصي دعبل من يمرّ بباب بيته أن يخفي خبزه من غلامه؛ خوفا من أن يأخذه منه، وقد عبرت هذه اللوحة بما حوته من مضامين عن نفسية بخيل ضنين.

ولابن الرومي وقفات مع البخلاء وأحوالهم النفسية، ومن ذلك قوله في وصف قرى

بخيل كناه أبا سعد:

وَفِي أَبِي سَعْدٍ لُؤْمٌ	وَإِنْ قَرَى وَتَبَسَّ مُمْ
يُقْرِي الضُّيُوفَ وَلَكِنْ	يُقْرِي الضُّيُوفَ وَيُنْدَمُ
وَأَيْسَ يَنْدَمُ سِرًّا	لَكِنَّهُ يَتَكَلَّمُ
فَمَنْ أَرَادَ قِرَاهُ	وَالشَّيْءَ تَمَّ فَلَيْتَهُ تَمَّ

(1) الخزاعي: الديوان، ص 423-424. وينظر: الدينوري: عيون الأخبار، 3/269-270.

وَأَلَيْسَ يُرْضِيهِ عِرْضٌ وَلَا أَدِيمٌ مِّمَّ مُكَّامٌ
وَكَيْفَ يَنْجُو مُغِيرٌ عَلَى فَرِيْسَةٍ ضَايِعَةٍ (1)

يقف ابن الرومي في أبياته هذه على شعورين متناقضين لهذا الرجل، الأول شكلي، يظهر فيه هذا البخيل مبتسما أمام ضيوفه، حريصا على قراهم، والثاني يدخل ابن الرومي في أعماق نفسيته ليكشف لنا عن بخله، وذلك من خلال إظهاره الندم بعد الضيافة، وشتيمة ضيوفه، والتعرض لأعراضهم، فهو كالأسد الذي يحرص على طعامه ولا يحب أن يشاركه فيه أحد.

ويمزج ابن الرومي بين الصوت والصورة في وصف الشعور النفسي للبخيل، يقول:

إِذَا افْتَرَسَتْ الرَّغِيْفَ أَنْ لَأَهُ كَأَنَّ لَيْثًا هُنَالِكَ افْتَرَسَهُ
حَتَّى إِذَا مَا طَفَّقَتْ تَأْكُلُهُ صَعَدَ مِنْ فَرْطِ حَسْرَةٍ نَفْسَهُ
كَأَنَّمَا كُلُّ لُقْمَةٍ أُكِلَتْ مِنْزُوعَةً مِنْ يَدَيْهِ مُخْتَلَسَةً (2)

فهو يئن كالعليل لرغيفه الذي أكل منه ضيفه، وأتبع أنينه زفرات من الحسرة والأسى عليه، فرغيفه قطعة من جسده يستحق أن يتألم لفقده، ولا شك أن صورة البخيل وهو يئن ويزفر حسرة أضفت على المشهد جمالا ودلالة وقوة.

ومن البخلاء من تضيق به الدنيا عند سماعه دعوة للبذل والجود، يقول منصور الفقيه

معبرا عن هذا المعنى:

(1) ابن الرومي: الديوان، 3/344.

(2) المصدر السابق، 2/192-193.

تَضِيقُ بِهِ الدُّنْيَا فَيَنْهَضُ هَارِبًا إِذَا نَحْنُ قُلْنَا: خَيْرُنَا الْبَاذِلُ السَّمْحُ
فَإِنْ قِيلَ مَنْ هَذَا الشَّقِيُّ؟ أَقُلْ لَهُمْ عَلَى شَرِّ كِتْمَانِ الْحَدِيثِ-هُوَ الْفَتْحُ⁽¹⁾

فمجرد الحديث عن الجود يسوق هذا البخيل للضييق والقلق، ويدفعه إلى مغادرة المجلس الذي يذكر فيه فارا من البذل، وهو شعور متأصل في نفسية البخلاء الذين يبغضون مجالس الجود والأماكن التي يطلب فيها تقديم العطايا.

أما الوصف النفسي الذي يعتمد على ملاحظة الحركات النفسية المختلفة التي تلامس البخل، وتتبع الأحاسيس التي تصحبه، وكشف المحاولات الباطنة التي يحاول البخلاء إخفاءها أو الدفاع عنها، فشيء من أروع ما أتيح لجملة أن يتفنن في إبرازه، مع دقة في الملاحظة وبراعة في السياق، وتغلغل في خفايا نفوس بخلائه، ومنه قوله يصف مشاعر بخيل استضافه:

لَنَا صَاحِبٌ مِنْ أُبْرَعِ النَّاسِ فِي الْبُخْلِ وَأَفْضَلِهِمْ فِيهِ وَلَيْسَ بَدِي فَضْلٍ
دَعَانِي كَمَا يَدْعُو الصَّدِيقُ صَدِيقَهُ فَجِئْتُ كَمَا يَأْتِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي
فَلَمَّا جَلَسْنَا لِلْغَدَاءِ رَأَيْتُهُ يَرَى إِنَّمَا مِنْ بَعْضِ أَعْضَائِهِ أَكْلِي

فالبيت الثالث يعبر عن الألم الذي انتاب هذا البخيل لحظة تناول جملة طعامه، ولشدة قهره وكمدته على طعامه كان يرى بأن جملة كان يأكل من جسمه، وتنعكس هذه النفسية المتألمة على تصرفات وسلوك هذا البخيل، فيأخذ بشتم العبد وإظهار الغضب، وهي تصرفات يلجأ إليها البخلاء امتعاضا من الضيوف، وسبيلا لدفعهم لترك المائدة، يقول:

(1) القحطاني: منصور الفقيه حياته وشعره، ص90.

وَيَغْتَاطُ أَحْيَانًا وَيَشْتُمُ عَبْدَهُ وَأَعْلَمُ أَنَّ الْغَيْظَ وَالشَّتْمَ مِنْ أَجْلِي
أُمُّ يَدِي سِرًّا لِأَسْرِقَ لُقْمَةً فَيَلْحَظُنِي شَزْرًا فَأَعْبَثُ بِالْبَقْلِ (1)

وفي البيت الأخير استكمل لحظة رسم الملامح النفسية لهذا البخيل وذلك من خلال وصف نظراته، فالشرر يتطاير من عينيه ومن نظراته الشزرى التي تحمل الحنق والغضب، وبذا يكون لحظة قد جمع بين النظرة والغيط وشم العبد؛ ليدلل بأسلوب ساخر جميل على شح هذا الصاحب.

وفي لوحة أخرى يرسم لنا لحظة البرمكيّ لوحة للحالة النفسية لذلك البخيل الذي جاءه زائراً، يقول:

تَقَرَّغَ إِذْ جِئْتُهُ لِلسَّلَامِ وَمَاتَ مِنَ الْخَوْفِ لَمَّا دَخَلْتُ
فَقُلْتُ لَهُ لَا يَرُعُكَ الدَّخُولُ فَوَاللَّهِ مَا جِئْتُ حَتَّى أَكَلْتُ (2)

فهذا البخيل قد مات خوفاً عندما ذهب إليه يزوره في بيته، وما هدأت نفسه حتى أبلغه لحظة أنه تناول طعامه قبل أن يزوره، فاطمأن واستقبله ورحب به.

ويصف لحظة موقفاً لبخيل تناول عنده طعاماً، راسماً ملامح نفسيته عندما مدّ لحظة يده إلى فرخ ليأكل منه، فما كان منه إلا أن أشار إلى غلمانته بوجه عابس أن يمنعوا لحظة عن الأكل، وبرسم كاريكاتوريّ ساخر يصور لنا غلاماً يعمل عند هذا البخيل وهو يدوس على بطنه، وغلاماً آخر يدوس على جنبه، يقول لحظة:

(1) البرمكي: الديوان، ص157.

(2) البغدادي: البخلاء، ص98.

مَدَدْتُ يَدِي يَوْمًا إِلَى فَرخٍ بَاخِلٍ كَمَا يَفْعَلُ الْخِلُّ الصَّدِيقُ الْمُؤَانِسُ
فَأَوْمَأَ إِلَى غِلْمَانِهِ فَنَوَّاثَبُوا إِلَيَّ وَوَجَّهَهُ النَّذْلُ إِذْ ذَاكَ عَابِسُ
فَهَذَا لِبَطْنِي حِينَ أَسْقَطُ دَائِسُ وَذَلِكَ لِحَبْنِي حِينَ أَنْهَضُ رَافِسُ
وَمَنْ يَطْلُبُ الْمَالَ الْمُتَمَعَّ بِالْقَنَّا يَعِشُ مُثْرِيًا أَوْ يُوَدِّ فَيَمِينُ يُمَارِسُ⁽¹⁾

فجحظة مولع بهذا النوع من البحث والتتبع للحالات النفسية الخفية، وإظهار الحركات الشعورية المختلفة، وملاحظة الصلة بينها وبين الحركات والسمات الظاهرة، من كلمة عابرة، أو إشارة طائفة، أو لفظة سريعة، كالإيماء والعبوس، والدوس، والرفس.

وفي مقطوعة حوارية يعرض فيها أبو تمام ببخيل كان يظهر صداقته وحبّه له، وفجأة انقلب هذا الصديق إلى عدوّ كاره له، يقول أبو تمام في هذه المقطوعة:

أَتَيْتُ يَحْيَى وَقَدْ كَا نَ لِي صَدِيقًا وَوَدَا
فَقُلْتُ مَا بَالُ هَذَا فَتَى اشْمَازًا وَصَادَا
فَارْتَدَّ مِنِّي ارْتِدَادًا أَسِيرِ عَالِينَ قَدَا⁽²⁾
كَذَا الْكَرِيمُ إِذَا مَا أَرَادَ أَنْ يَتَغَدَّى⁽³⁾

فالاشمئزاز والصدّ والنفور من الضيف وإظهار الغضب عند رؤيته في بيته، مشاعر نفسية تدل على بخله.

(1) البرمكي: الديوان، ص113. يمارس: يخاصم ويضارب. لسان العرب، مادة مرس.

(2) قدا: فرقة وبعدا. لسان العرب، مادة قدد.

(3) التبريزي: شرح ديوان أبي تمام، 334/2.

ويوجّه أبو تمام نقداً لأبي دلف بسبب تلك المشاعر التي يظهرها عندما يطلب إليه

العطاء، يقول:

عَجَبٌ لَعَمْرِكَ أَنْ وَجْهَكَ مُعْرِضٌ عَنِّي وَأَنْتَ بِوَجْهِهِ نَفْعِكَ مُقْبِلٌ
بِرٌّ بَدَأَتْ بِهِ وَدَارٌ بِأَبْهَاهَا لِلْخَلْفِ مَفْتُوحٌ وَوَجْهُكَ مُقْبِلٌ
أَوْ لَا تَرَى أَنَّ الطَّلَاقَةَ جَنَّةٌ مِنْ سُوءِ مَا تَجْنِي الظُّنُونُ وَمَعْقِلٌ
إِنْ تُعْطِ وَجْهًا كَاسِفًا مِنْ تَحْتِهِ كَرَمٌ وَحَلْمٌ خَائِفَةٌ لَا تَجْهَلُ⁽¹⁾

فهو يشيح بوجهه عنه، ويظهر العيوس والتقطيب عندما يراه، فما قيمة الصداقة إن

رافقتها تلك المشاعر؟

وبعد، فهذه صور مقتضبة من اتجاه الشعراء في هذا العصر إلى الوصف النفسي،

وأمثلة عابرة عن مقدرتهم على التغلغل في بواطن نفوس البخلاء، وتتبع حركاتها، وملاحظة

الحالات المختلفة لها، والتعرف على الدقائق التي تلامس مشاعر البخيل من حزن وقلق وخوف

من ضيوفه على طعامه فهو قطعة من جسده، يئن لفقدائها كما يئن المريض، ويصل لفقد حذاء

المرض والموت، إلى اسوداد في الوجه وخفض للرأس، والقيام بتصرفات وأعمال يستشف منها

الألم والحسرة على فقد الطعام، كشتم الأبناء والخدم، ورفع الصوت والإيماء والرفس وغيرها،

ولا شك أن الشعراء العباسيين لهم فضل كبير في هذا الجانب.

⁽¹⁾ التبريزي: شرح ديوان أبي تمام، 29/2.

البعد الاجتماعي للبخل

لا يخلو مجتمع من المجتمعات من أهل البخل، فالحرص -كما مرّ- خلق مطبوع به الناس، والمجتمع العباسي واحد من هذه المجتمعات التي ظهر فيها البخل، وليس أدل على ذلك من كتاب البخل للجاحظ، الذي زخر بقصص ونوادير كان أكثرها من واقع مجتمعه، وقد واكب الشعراء هذه الظاهرة في هذا المجتمع الجديد، ورأى بعضهم أن البخل مرض متفش في مجتمعهم، يقول أبو نواس:

يا عمرو ما للناس قد كلفوا بلا ونسو نعام
أترى السامحة والندى رُفعا كما رُفِعَ الكرم
مُسَخَ الندى بخلا فما أَحَدٌ يجودُ لذي عَدَم⁽¹⁾

فهو يلوم هذا المجتمع الذي رُفِعَ منه الجود، وانقلبت الموازين فيه فأضحى الكرم بخلا، والبخل شرفاً ورفعة.

ومن ذلك قول الشافعي:

بَلَوْتُ بَنِي الدُّنْيَا فَلَمْ أَرِ فِيهِمْ سِوَى مَنْ عَدَا وَالْبُخْلُ مِلءُ إِهَابِهِ⁽²⁾

ومن ذلك أيضا شكوى أبي العتاهية من كثرة البخل في زمانه، هذه الفئة التي ترفض

أن تجود ولو بالقليل، يقول:

(1) أبو نواس: الديوان، ص501.

(2) الشافعي: الديوان، ص23. الإهاب: الجلد من البقر والغنم وغيرها. لسان العرب، مادة أهب.

اصْرِفْ بِطَرَفِكَ حَيْثُ شِئْتُ _____
 تَفَلَا تَرَى إِلَا بَخِيلًا _____
 وَلَرَبَّمَا سُئِلَ الْبَخِيلُ _____
 فَيقُولُ: لَا أَجِدُ السَّبِيحَ _____
 لُ الشَّيْءَ لَا يَسْوَى فَتِيلًا _____
 لُ إِلَيْهِ، أَكْرَهُ أَنْ أَنْيِلًا⁽¹⁾ _____

فالمجتمع بنظر أبي العتاهية مجتمع البخلاء، يقترون على غيرهم، ويضنون ولو بالشيء

القليل، ويضعون العلل الباهتة، كعوزهم وقلة أموالهم، وهم يكرهون أن يجودوا بشيء.

ويصف لحظة التحول الذي حصل في هذا العصر بقوله:

كَانَ الْكِرَامُ وَأَبْنَاءُ الْكِرَامِ إِذَا _____
 تَسَامَعُوا بِكَرِيمٍ مَسَّاهُ عَدَمَ _____
 تَسَابَقُوا فَيُؤَاسِيهِ أَخَوْكَرَمَ _____
 مِنَهُمْ وَيَرْجِعُ بَاغِيهِمْ وَقَدْ نَدِمُوا _____
 وَالْيَوْمَ لَا شَكَّ قَدْ صَارَ النَّدَى سَفَهَا _____
 وَيُنْكِرُونَ عَلَى الْمُعْطِي إِذَا عَلِمُوا⁽²⁾ _____

فبعد أن كان الكرم صفة العرب، أضحى-كما يرى لحظة- سفها وطيشا، بل تعدى ذلك

إلى الإنكار على المعطي، الذي يجود بماله وعطائه.

وتناول الشعراء في هذا العصر فئات اجتماعية مختلفة من البخلاء، منها المسؤولون

والأثرياء، ومنها الأقارب والأصدقاء والجيران، ومنها الشعراء والمتفقون وأصحاب الكلام،

ومنها الأقبام والجماعات.

(1) البغدادي: البخلاء، ص 65.

(2) البرمكي: الديوان، ص 161.

ولا عجب أن يلحظ الدارس أن أكثر البخلاء الذين تعرض لهم الشعراء هم من المسؤولين والأثرياء؛ ذلك أن البخل يجتمع مع المال، وهم أصحاب المال والثروة، ومن ذلك قول بشار في قبيصة⁽¹⁾:

أُقْبِصَ لَسْتُ وَإِنْ جَهَلْتُ بِبَالِغِ سَعِي ابْنِ عَمَّكَ ذِي النَّدَى دَاوُدَ
شَتَانِ بَيْنَكَ يَا قَبِصَ وَبَيْنَهُ أَنْتَ الذَّمِيمُ وَلَسْتُ كَالْمَحْمُودِ
أَخْتَارَ دَاوُدُ الْبُكَاءَ مَكَارِمًا وَأَخْتَرْتُ أَكْلَ نَقَانِقٍ وَتَرِيدَ⁽²⁾
لَكِنْ جَرَى دَاوُدُ جَرِي مُرَّرَ فَحَوَى النَّدَى وَجَرَيْتَ جَرِي بَلِيدِ
هَذَا جَزَاؤُكَ يَا قَبِصَ فَإِنَّهُ جَادَتْ يَدَاهُ وَأَنْتَ قُفْلُ حَدِيدِ⁽³⁾

وفي الأبيات مقارنة بين داود بن يزيد بن حاتم، وقبيصة بن روح بن حاتم، فالأول عرف بكرمه، وأما قبيصة، فكان كقفل الحديد لا يعطي ولا يسمح بالعتاء على الرغم من غناه.

ومن الشعراء الذين تعرضوا للمسؤولين البخلاء ابن هرمة، فقد هجا محمد بن عمران

الطلحي⁽⁴⁾ قاضي المدينة زمن المنصور بقوله:

تَحَدَّثَ النَّاسُ عَمَّا فِيكَ مِنْ كَرَمٍ هَيْهَاتَ ذَاكَ لِضِيْفَانِ الْمَسَاكِينِ
أَصْبَحْتَ تَخْزِنُ مَا تَحْوِي وَتَجْمَعُهُ أَبَا سُلَيْمَانَ مِنْ أَشْلَاءِ قَارُونَ

(1) داود بن يزيد بن حاتم، وقد تم التعريف بوالده. وقبيصة والده روح بن حاتم المهلبي، وقد اشتهر بالجد، وولي لخمسة (1) لخمسة من الخفاء، توفي سنة 174هـ. انظر الصفدي: الوافي بالوفيات، 100/14.

(2) النقانق: مفردتها النفقق، وهو ذكر النعام. لسان العرب، مادة نقق. التريد: طعام مما يهشم من الخبز ويبلل في الماء. لسان العرب، مادة ترد.

(3) بشار: الديوان، ص 404.

(4) محمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد بن طلحة، أبو سليمان، قاضي المدينة زمن المنصور، جدته حفصة بنت عبد الله ابن عمر بن الخطاب، كان مهيبا ثقة ورعا قليل الحديث، توفي سنة 154هـ. انظر الصفدي: الوافي بالوفيات، 165/4.

ابن عمران آباء له سألوا يجزون فعل ذوي الإحسان بالدون⁽¹⁾

فابن عمران هذا بخيل يضمن على المساكين على الرغم من كثرة أمواله التي يجمعها
كما جمعها قارون في كنوزه، وليس هذا الخلق عنده حسب، بل هو طبع في آباءه وأجداده ورثه
عنهم.

ويختار مسلم بن الوليد بخلاءه من عليّة القوم، ومن أكابر الناس، ومنهم يزيد بن
مزيد⁽²⁾، وسعيد بن سلم، وخزيمة بن خازم⁽³⁾، ويتخذ من بخلهم وسيلة للانقضاض عليهم
بأسلوب ساخر، يقول مسلم:

دُبُونُكَ لَا يُقْضَى الزَّمَانَ غَرِيمُهَا وَبُخْلُكَ بُخْلُ الْبَاهِلِيِّ سَعِيدِ
سَعِيدُ بْنُ سَلَمٍ أَلَمُ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَمَا قَوْمُهُ مِنْ لَوْمَةٍ بَبَعِيدِ
يَزِيدُ لَهُ فَضْلٌ وَلَكِنَّ مَرِيدًا تَدَارَكَ أَقْصَى مَجْدِهِ بِيَزِيدِ
خُزَيْمَةُ لَا بَأْسَ بِهِ غَيْرَ أَنَّهُ لِمَطْبَخِهِ قُفْلٌ وَبَابٌ حَدِيدِ⁽⁴⁾

فهو يرميهم بالبخل واللؤم، قاصداً بذلك التشهير بهم والنيل منهم.

(1) الأصبهاني: الأغاني، 4/383-384.

(2) يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني، من الأمراء المشهورين والشجعان المعروفين، ولي أرمينيا زمن هارون الرشيد سنة
سنة 183هـ، أرسله هارون الرشيد لقتال الوليد بن طريف وتمكن من هزيمته، توفي سنة 185هـ. انظر ابن خلكان:
وفيات الاعيان، 6/327-342.

(3) خزيمة بن خازم التميمي، من أكابر القواد في عهد الرشيد والمأمون، ولي البصرة في أيام الرشيد والجزيرة في أيام
الأمين، مات في بغداد سنة 203. انظر الأصبهاني: الأغاني، 19/54.

(4) الوليد: الديوان، ص 271.

والحاق صفة البخل بالمسؤولين لها أثر كبير عليهم، وتدفعهم أحيانا إلى التراجع عن شحهم، ومن ذلك هجاء محمد بن وهيب الحميري⁽¹⁾ علي بن هشام⁽²⁾ بعد أن كان يمدحه، ذلك أنه أنه عرف بالتيه الشديد، فكان لا يرفع طرفه حين يسلم على الآخرين، وذكر صاحب الأغاني أن الحميري بعث له برقعة يعاتبه فيها، فقال: أي شيء يريد هذا الثقيل السيئ الأدب؟ فلما علم بذلك الحميري هجاه واسما إياه بالبخل وعدم النوال، يقول الحميري معرضا بابن هشام:

لَمْ تَتَدَّ كَفَّاكَ مِنْ بَدَلِ النَّوَالِ كَمَا لَمْ يَنْدَ سَيْفُكَ مُذْ قُلِدَّتَهُ بِدَمِ
هَيْهَاتَ لَيْسَ بِحَمَالِ الدِّيَاتِ وَلَا مُعْطِي الْجَزِيلِ وَلَا الْمَرْهُوبِ ذِي النِّقَمِ⁽³⁾

فقد ربط البخل بالجبن في ساحة المعركة، وهو ما زاد في إيلام المهجور، وقديما كان الشعراء يكثر من ربط الكرم بالمال والطعام بالجود بالنفس في ساحة المعركة، لذا فلا عجب أن يكون وقع هذه الأبيات على علي بن هشام كوقع السهام أو أشد، وأنه قد تراجع عن فعله وندم على تصرفه مع الحميري⁽⁴⁾.

ويتخذ أبو تمام من والي بحر مصر زمن مروان بن محمد عيَّاش بن لهيعة⁽⁵⁾ هدفا لنقده

لنقده وهجائه، يقول فيه:

(1) محمد بن وهيب الحميري البصري، شاعر مطبوع مكثر، مدح المأمون والمعتصم، كان متشيحا. مات سنة 240هـ.

انظر الأصبهاني: الأغاني، 80/19. الصفي: الوافي بالوفيات، 118/5.

(2) علي بن هشام بن فرحسرو، أحد قواد المأمون وندمائه، ولاه المأمون على كور الجبال، ففتك بالرجال وسلب الأموال،

الأموال، قتله المأمون سنة 217هـ. انظر الصفي: الوافي بالوفيات، 178/22.

(3) الأصبهاني: الأغاني، 88/19.

(4) انظر المصدر السابق، 88/19.

(5) عيَّاش بن لهيعة الحضرمي، ولي بحر مصر لمروان بن محمد، كان ثقة صادقا، توفي سنة 226هـ. انظر العسقلاني،

أحمد بن حجر، تهذيب التهذيب، اعتناء إبراهيم الزبيق وعادل مرشد، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1995، 351/3-352.

عِيَّاشُ يَا ذَا الْبُخْلِ وَالتَّصْرِيدِ وَسُلَالَةَ التَّضْيِيقِ وَالتَّكْيِيدِ⁽¹⁾
لُؤْمٌ تَدِينُ بِخُلُوهِ وَبِمُرِّهِ فَكَأَنَّهُ جُزْءٌ مِنَ التَّوْحِيدِ⁽²⁾

فاللؤم والبخل دين يؤمن به عياش، وعقيدة يتبناها، ومسلكا يسلكه.

ويعرّض أبو تمام بأبي الوليد محمّد بن أحمد بن أبي دواد⁽³⁾ الذي ولي القضاء زمن المتوكل، ويصف الزّمان الذي ساد فيه بأنّه زمن لئيم، إذ كيف يسود وبابه مغلق أمام المحتاجين؟! يقول أبو تمام:

فَمَا أَنْتَ اللَّئِيمُ إِذْنٌ وَلَكِنْ زَمَانٌ سُدَّتْ فِيهِ هُوَ اللَّئِيمُ
أَتَطْمَعُ أَنْ تُعَدَّ كَرِيمَ قَوْمٍ وَبَابُكَ لَا يُطِيفُ بِهِ كَرِيمٌ⁽⁴⁾

وضحية ابن الرومي رجل ممن ولي الشرطة زمن المعتز، وهو أبو أيوب سليمان بن عبد الله بن طاهر⁽⁵⁾، يقول فيه:

يَا ضَيْفَةَ أَبْشِرْ فَإِنَّكَ غَانِمٌ أَجْرَ الصَّيَّامِ وَلَيْسَ بِالمَكْتُوبِ
وَلَوْ اسْتَطَاعَ لِحَبْطِ أَجْرِكَ حِيَةَ لاحتال في ذاك احتيال أريب⁽⁶⁾

(1) التصريد: تقليل العطاء وتنقيصه. لسان العرب، مادة صرد.

(2) التبريزي: شرح ديوان أبي تمام، 332/2.

(3) محمد بن أحمد بن أبي دواد (أبو الوليد)، ولاء المتوكل القضاء بعد والده، عرف بالبخل، وله فيه أخبار ظريفة، كان منحرفاً لاعتقاده بمذهب الحشوية، وهم فرقة من المرجئة. توفي سنة 239هـ. انظر الأصبهاني: الأغاني، 10/263. الصفي: الوافي بالوفيات، 27/2.

(4) التبريزي: شرح ديوان أبي تمام، 370/2.

(5) سليمان بن عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي، من بيت إمارة، ولي شرطة بغداد من قبل المعتز، كان أديباً شاعراً، توفي سنة 266هـ. انظر الصفي: الوافي بالوفيات، 15/242.

(6) أريب: عاقل وحكيم. لسان العرب، مادة أرب.

وَأَرَاهُ سَخَاهُ بِصَوْمِكَ عِلْمُهُ أَنْ لَيْسَ صَوْمُ الْكُرْهِ بِالْمَحْسُوبِ⁽¹⁾

فسليمان هذا يجبر الناس على الصيام إن زاروه، وذلك بمنع الطعام والشراب عنهم، بل هو يفتّر حتى بأجر الصيام على ضيفه، وما يجعله مطمئناً أنه يعلم أن صيام الكره لا ثواب عليه.

ومن الفئات الاجتماعية التي نظم فيهم الشعراء فئة الأقارب البخلاء، ومن ذلك قول أبي عيينة المهلب يهجو ابن عمه خالد بن يزيد بن المهلب والي جرجان⁽²⁾ الذي كان قد وعده أن يغدق عليه الأموال ويوليّه الإمارة، لكنه أخلف وعده ولم يعطه شيئاً مما وعده، يقول أبو عيينة المهلب:

أَخَالِدُ خُذْ مِنْ يَدِي لَطْمَةً تَغِيظُ وَمِنْ قَدَمِي رَكْلَةً
جَمَعْتَ خِصَالَ الرَّدَى جُمْلَةً وَبِعْتَ خِصَالَ النَّدَى جُمْلَةً
فَمَا لَكَ فِي الْخَيْرِ مِنْ خُلَّةٍ وَكَمْ لَكَ فِي الشَّرِّ مِنْ خَلَّةٍ
وَأَسْرَعْتَ فِي هَدْمِ مَا قَدْ بَنَى أَبُوكَ وَأَشْيَاخَهُ قَبْلَهُ
وَكَانَتْ مِنَ النَّبْعِ عِيدَانُهُمْ نُضَارًا وَعَوْدُكَ مِنْ أَثْلِهِ⁽³⁾
وَلَوْ كَانَ خُبْزٌ وَتَمْرٌ لَدَيْكَ لَمَا طَمِعُوا مِنْكَ فِي فَضْلِهِ

(1) ابن الرومي: الديوان، 197/1.

(2) خالد بن يزيد مولى بني المهلب، كان أديباً، عرف بالبخل مع كثرة ماله، كان متكلماً بليغاً وقاصاً داهياً. انظر الحموي: معجم الأدباء، 284/3 - 286.

(3) النبع: شجر تتخذ منه السهام والقسي، قيل: كان شجراً بطولاً ويعطو فدعا النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: لا أطالُك اللهُ من عُودٍ فلم يطلُ بَعْدُ. لسان العرب، مادة نبع. الأثل: شجر جواد، تسوى به الأقداح الجياد، ومنه اتخذ الرسول -صلى الله عليه وسلم- منبره. لسان العرب، مادة أثل.

وَإِنْ جَاءَكَ النَّاسُ فِي حَاجَةٍ
تَفَكَّرْتَ يَوْمَيْنِ فِي الْعَلَّةِ⁽¹⁾

وهو بهذه الأبيات يقارن بين كرم والد خالد الذي اتصف بالجود وتقديم الخير للآخرين، وبين الابن الذي هدم ما بناه والده من العز والسمعة الطيبة، فهو لبخله لو كان يملك الخبز والتمر وهما من أرخص الأشياء حينها، لما تصدق بشيء منهما، بل إن من يطلب إليه حاجة عليه أن ينتظر يومين دون فائدة، فخالد قد أعد علة لمنع هذه الحاجة عن محتاجها.

ويعد ابن بسام خير من يمثل هذا النوع من الشعر؛ وذلك لكثرة ما نظم في القدح بوالده

ووسمه بالبخل، يقول في إحدى مقطوعاته:

خَبِيصَةٌ تُعْقَدُ مِنْ سُكَّرَةٍ وَبُرْمَةٌ تُطْبَخُ مِنْ قُنْبَرَةٍ⁽²⁾
عِنْدَ قَتَى أَسْمَحَ مِنْ حَاتِمِ يَطْبُخُ قَدْرَيْنِ عَلَى مَجْمَرَةٍ
وَلَيْسَ ذَا فِي كُلِّ أَيَّامِهِ لَكِنَّهُ فِي الدَّعْوَةِ الْمُنْكَرَةِ
يَقُولُ لِلْأَكْلِ مِنْ خُبْزِهِ تَعَسَا لِهَذَا الْبَطْنِ مَا أَكْبَرَةٍ⁽³⁾

فهو يظهر الكرم والجود في يوم من أيام السنة، وفي دعوة منه لضيفه على غير عاداته،

فيطبخ في هذا اليوم أفضل الطعام، ويقدم فيه الحلوى اللذيذ، لكنه في باقي أيامه يشتم الآكل من طعامه، ويتهمه بكبر البطن.

(1) الأصبهاني: الأغاني، 121/20.

(2) الخبيصة: الحلواء المخبوصة وهي معروفة في زمانهم. لسان العرب، مادة خبص. البرمة: القدر. لسان العرب، مادة برم القنبرة: طائر القبرة. لسان العرب، مادة قبر.

(3) الحصري، إبراهيم بن علي جمع الجواهر في الملح والنوادر، تحقيق علي الجاوي، ط2، بيروت، دار الجيل، 1987، ص223.

ولا يكتفي ابن بسّام بالتعريض بوالده، بل يلاحق عمّه وينعته بالبخل، يقول:

الْقَلَايَا قَدْ جُنِنَ مِنْ مَنْزِلِ الْعَمِّ مَ قَلَايَا قَوْمِ ذَوِي إِمْسَاكِ (1)
قَلَّ أَوْدَاكُهَا فَلَمْ أُسْتَطِئْهَا وَالْقَلَايَا تَطْيِبُ بِالْأَوْدَاكِ (2)

فطعامه طعام البخلاء؛ ذلك أنه قد خلا من اللحم والدم.

وتعرض الشعراء لفئة البخلاء من الأصدقاء، وقد عرف جحظة بهذا النوع من الشعر،

ومن ذلك قوله يصف احتفالاً أقامه أحد أصدقائه البخلاء:

لِي صَدِيقٌ طَرَقْتُهُ يَوْمَ جَمْعٍ وَاحْتِقَالٍ وَمَنْ دَعَاهُ حُفُولُ (3)
يَتَشَكَّوْنَ شِدَّةَ الْجَوْعِ وَالِدَا عِي لَهْمٍ عَنِ مَقَالِهِمْ مَشْغُولُ
ثُمَّ نَادَيْتُ بِالطَّعَامِ وَقَدْ كَا دَتُ نَفُوسُ الْحُضَارِ جَوْعًا تَسِيلُ
هَلْ إِلَى نَظْرَةٍ إِلَيْكَ سَبِيلُ يُرَوِّ مِنْهَا الصَّدَى وَيُشْفِ الْغَلِيلُ
قَالَ هَيْهَاتَ دُونَ ذَلِكَ قُفْلُ مُنَاعٌ مِفْتَاحُهُ، وَمَنْعٌ طَوِيلُ (4)

فهذا الصديق قام بدعوة ضيوفه لحفل، فانشغل عنهم وتركهم يفاسون الجوع، ولم تتفع

دعوات جحظة وتوسلاته بجلب الطعام لهم، فقد أغلق عليه ولا يمكن الوصول إليه.

(1) القلايا: واحدها قلية والقلية من الطعام: مرقّة تتخذ من لحوم الجزور وأكبادها. لسان العرب، مادة قلي.

(2) العبدلكاني، عبد الله بن محمد: حماسة الظرفاء، تحقيق جبار المعبيد، ط1، بغداد، منشورات وزارة الإعلام، 1973،

133/2. الأوداك واحدها ودك وهو دسم اللحم. لسان العرب، مادة ودك.

(3) حفول: مجتمعون محتشدون. لسان العرب، مادة حفل.

(4) البرمكي: الديوان، ص148.

وتعرض الشعراء للبخلاء من الجيران، فما هو الشاعر إسماعيل بن عمّار⁽¹⁾ يصف

أسرة جار له كان يبخل على أولاده⁽²⁾ بقوله:

جَارٌ لَّهُ بَابٌ سَاجٍ مُغْلَقٌ أَبَدًا عَلَيْهِ مِنْ دَاخِلِ حُرَّاسٍ وَحُرَّاسُ
عَبْدٌ وَعَبْدٌ وَبِنْتَاهُ وَخَادِمُهُ يَدْعُونَ مِثْلَهُمْ مَنْ لَيْسَ مِنْ نَاسِ
صَفْرُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ السُّلَّ خَامَرَهُمْ وَمَا بِهِمْ غَيْرُ جَهْدِ الْجُوعِ مِنْ بَاسِ⁽³⁾
لَهُ بَنُونَ كَأَطْبَاءٍ مُعَلَّقَةٍ فِي بَطْنِ خَنْزِيرَةٍ فِي دَارِ كَنَاسِ⁽⁴⁾
إِنْ يُفْتَحِ الدَّارَ عَنْهُمْ بَعْدَ عَاشِرَةٍ تَنْظُنُّهُمْ خَرَجُوا مِنْ قَعْرِ أَرْمَاسِ⁽⁵⁾

فأولاده محبوسون في البيت يعانون الجوع والهزال لأنه يضمنّ عليهم، وتحبس كلاب

هذا الرجل وتجوع، ووجوههم مصفرة من الجوع، ويصوّرونهم من شدّة هزالهم بحلمات متجعّدة

مسترخية لخنزيرة جائعة، وإن رأيتهم حسبتهم موتى خرجوا من قبورهم.

ومن البخلاء الذين كان لهم حضور بارز في الشعر العباسي الشعراء والمطربون

والمثقفون وأصحاب الكلام والعلم، ومنهم مروان بن حفصة، فقد أورد صاحب المستطرف أنّ

(1) إسماعيل بن عمار بن عينية الأسدي، (ت 157هـ)، من مخزومي الدولتين الأموية والعباسية، كان شاعرا هجاءً شديدا في هجائه، عاش في الكوفة، كان معروفا باللهو والمجون. انظر الصفدي: الوافي بالوفيات، 107/9-108. الزركلي: الأعلام، 320/1.

(2) هو عثمان بن درباس، وقد كان يؤذي إسماعيل، ويسعى به إلى السلطان، واتهمه بأنه من الخوارج فحبس. انظر الصفدي: الوافي بالوفيات، ص 107.

(3) خامرهم: قاربهم وأصابهم. لسان العرب، مادة خمر.

(4) أطباء: حلمات الضرع. لسان العرب، مادة طبي. دار كناس: بيت الطبي. لسان العرب، مادة كنس.

(5) الصفدي: الوافي بالوفيات، 108/9.

الهيثم بن عدي⁽¹⁾ قال: نزل على أبي حفصة الشاعر رجل من اليمامة، فهرب من المنزل خوفا خوفا من أن يكلفه مؤونة إطعامه في هذه الليلة، فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه ثم رجع وكتب إليه:

يا أيُّها الخارجُ مِنْ بَيْتِهِ وَهَارِباً مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ
ضَيْفُكَ قَدْ جَاءَ بِزَادٍ لَهُ فَارْجِعْ وَكُنْ ضَيْفًا عَلَى الضَّيْفِ⁽²⁾

فالأبيات تحمل في طياتها سخرية من أبي حفصة، فأبي عار أكبر من أن يتحول المرء من مضيف في بيته إلى ضيف يتكرم عليه الآخرون؟

وعرف الشاعر محمد بن يسير الرياشي بالبخل، وكان يتصنع الحكمة أحيانا، وقد تورط مرّة عندما افتخر بالكرم حين قال في حلقة عبد الله التوزي⁽³⁾ اللغوي المعروف:

لا يَعدُّمُ السَّائِلُونَ الْخَيْرَ أَفْعُلُهُ إِمَّا نَوَالِي وَإِمَّا حُسْنَ مَرْدُودِ

فما كان من الحاضرين إلا أن اغتموا الفرصة وذهبوا إلى بيته ووجدوا وعاء فيه تمر، فأكلوا ما استطاعوا أن يأكلوه، وحملوا الباقي معهم، فاغتاظ ابن يسير وشكاهم إلى عمر بن حفص والي البصرة، وقال أبياته التي يظهر فيها بخله:

(1) الهيثم بن عدي بن عبد الله الرحمن، (ت 206هـ)، من طيء، كان راويا للأخبار، وكان من الخوارج، له مصنفات كثيرة منها: كتاب المثالب وكتاب النوادر وغيرها، جالس المنصور والمهدي والهادي والرشيد. انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، 106/6-107. الصفدي: الوافي بالوفيات، 236/27-237.

(2) الأبيشي: المستطرف، 377/1.

(3) عبد الله بن محمد بن هارون التوزي، مولى قريش، (ت 238هـ)، يعد من أكابر أئمة اللغة، من كتبه (الأمثال)، و(الأضداد) وغيرها. انظر الصفدي: الوافي بالوفيات، 281/17-282.

يَا أَبَا حَفْصٍ بِحُرْمَتِنَا عَن نَفْسَا حِينَ تَنْتَهَكُ
 خُذْنَا نَارَنَا بِجُلَّتِنَا فَبِكَ الْأَوْتَارُ تُدْرِكُ
 زارني زور فلا سلّموا وَأَصْـيَبُوا أَيُّـةً سَأَلُوا
 أَكَلُوا حَتَّى إِذَا شَبِعُوا أَخَذُوا الْفَضْلَ الَّذِي تَرَكَوا⁽¹⁾

ومن البخلاء المطربين أبو إسحق إبراهيم الموصلي⁽²⁾، وقيل إنّ ضيوفا نزلوا عنده، فلما

فلما جاعوا نظروا على جدار البيت، فإذا مكتوب عليه:

نَعْمَ النَّدِيمُ نَدِيمٌ لَا يُكَفُّنِي ذَبْحَ الْفَرَاخِ وَلَا ذَبْحَ الْفَرَارِيحِ

فلما قالوا له بأنهم يرضون بالقليل منه نظرا لشدة جوعهم، نظروا إلى ناحية ثانية من

الجدار وقد كتب الموصلي عليها بيتين آخرين:

اشْرَبْ عَلَى الْخَيْرِيِّ وَالرَّيْقِ فَنَحْنُ فِي بُعْدٍ مِنَ السُّوقِ
 لَا تَرْجُونَ الْخُبْزَ فِي بَيْتِنَا مَا لَكَ إِلَّا النَّفْخُ بِالْبُوقِ⁽³⁾

وتعرض الشعراء للبخلاء من أصحاب الكلام والاعتزال، ومن ذلك قول دعبل في أبي

عمران التميمي⁽⁴⁾:

(1) الأصبهاني: الأغاني، 35/14.

(2) إبراهيم بن ماهان بن بهمن، (ت 188هـ)، مولى بني حنظلة فارسي الأصل، كان رئيس المطربين في زمانه، اتصل بالخلفاء والبرامكة، برع في الشعر والأدب. انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، 1/42. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 79/9-80. الصفي: الوافي بالوفيات، 6/65.

(3) البغدادي: البخلاء، ص 137.

(4) موسى بن عمران التميمي (أبو عمران)، من أصحاب الكلام والاعتزال، رمي بالبخل، كان صديقا للجاحظ وروى عنه عنه قصصا في كتابه البخلاء. انظر الجاحظ: البخلاء، ص 46. الخزاعي، دعبل: الديوان، ص 570.

رَأَيْتُ أَبَا عِمْرَانَ يَبْذُلُ عَرْضَهُ
وَحُبْرُ أَبِي عِمْرَانَ فِي أَحْرَزِ الْحِرْزِ
يَحْنُ إِلَى جَارَاتِهِ بَعْدَ شَبْعِهِ
وَجَارَاتُهُ غَرَّتِي تَحْنُ إِلَى الْخُبْرِ⁽¹⁾

فأبو عمران هذا يغار على طعامه أكثر من غيرته على عرضه، وطعامه مخفي لا يمكن الوصول إليه، والأمر من ذلك أنه يستغل جوع جاراته ليحقق مآربه، ودعبل بهذه المعاني يتهم أبا عمران بالبخل والاعتداء على الأعراض.

ومن الشعراء من رمى أقواما بالبخل، ومن ذلك قول بلال بن جرير يهجو بني ناشرة، بعد أن مرّ على نفر منهم فلم يقروه، وجفوه:

عَدَدْنَا فُقَيْمًا وَأَبَاءَهُمْ
فَشَرُّ فُقَيْمٍ بُنُو نَاشِرَةٍ
يَعْدُونَ غَرْمًا قَرَى ضَايِقَهُمْ
فَلَا عَادَمُوا صَفْقَةً خَاسِرَةٍ
إِذَا ضُضُّوا فَتَهُمْ وَتَحَيَّلَتْهُمْ
وَجَدْتَ لَهُمْ عَلَّةَ حَاضِرَةٍ
وَلَيْسُوا إِذَا قُلْتِ: مَاذَا هُمْ
بِأَصْحَابِ دُنْيَا وَلَا آخِرَةٍ⁽²⁾

فهم يبخلون على ضيوفهم، ولا يعدمون العلة لتبرير بخلهم، ويختم بأنهم لا هم من أهل الدنيا ولا الآخرة، ولا شك أن بلالا بذلك قد نجح في النيل منهم وتحقيرهم.

ومن الأقوام الأخرى التي رماها الشعراء بالبخل البرامكة، ومن ذلك قول أبي نواس

فيهم:

(1) الخزاعي، دعبل: الديوان، ص 167.

(2) البغدادي: البخلاء، ص 120.

لَبَنِي الْبَرْمَكِيِّ قَصْرٌ مُنِيفٌ وَجَمَالٌ وَلَيْسَ فِيهِمْ حَنِيفٌ
دَارُهُمْ مَسْجِدٌ يُؤَدَّنُ فِيهَا لَاتَقَاءٍ وَلَيْسَ فِيهَا كَنِيفٌ
فَإِذَا أَدَّنُوا لَوَقَّتِ صَلاةً كَرَّرُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الرَّغِيفُ⁽¹⁾

فعلى الرغم من غناهم، إلا أنهم يصلون في بيوتهم خوفا من سؤال المحتاجين، وبدلا من ترديد عبارة التوحيد، يرددون عبارة "لا إله إلا الرغيف"، دلالة على تقديسهم له، وهو تعبير ساخر مؤلم.

ويهجو أحمد بن أبي فنن قوم رجل اسمه حسان، يقول:

ذَهَبَ الزَّمَانُ بِرَهْطِ حَسَّانِ الْأُولَى كَانَتْ مَنَاقِبُهُمْ حَدِيثَ الْغَابِرِ
وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ تَحُلِّ ضِيُوفُهُمْ فِيهِمْ بِمَنْزِلَةِ اللَّئِيمِ الْغَادِرِ⁽²⁾

فهم شذوا عن آبائهم الكرماء، فكانوا لؤماء على ضيوفهم أشحاء في النفقة.

تظهر الأشعار التي مرت في هذا الباب مدى التنوع الاجتماعي للبخلاء في العصر العباسي، وهو تنوع فطري جبلت عليه المجتمعات في كل العصور، فالبخل لا يقتصر على فئة دون فئة، وإن كان الولاة والمسؤولون والأغنياء أكثر نصيبا منه من غيرهم.

(1) أبو نواس: الديوان، ص363.

(2) العباسي، بدر الدين: معاهد التصييص، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة، 1947، 6/4.

المكان في شعر البخل

يعد الشعر وليد البيئة التي يعيشها الشاعر، فظروف الحياة التي تحيط به من مكان وأناس وزمان وأجواء تؤثر في الشاعر، وتنعكس على إنتاجه الشعري، من هنا كان للمكان في الشعر العباسي تأثيره على نتاج الشعراء، والتجديد في الأغراض والمضامين، وكان لشعر البخل نصيب من هذا التأثير.

ولا شك أن تتبع أماكن تواجد الشعراء الذين تعرضوا للبخل يظهر أن حركة تنقلهم كانت مستمرة، فالشاعر ينتقل بين الأمصار بحثاً عن رزق، أو هرباً من حاكم، لكن هذا لم يمنع من استقرار الكثير منهم أغلب سني حياتهم في بغداد عند انتقال الخلافة إليها، وباستقراره وتتبع لأماكن عيشهم، يتضح أن بغداد كانت الموطن الحقيقي لكبار هؤلاء الشعراء الذين كان لهم نصيب كبير في نظم الشعر الذي تناول البخل، ومن أهم هؤلاء الشعراء بشار وأبو نواس ودعبل وجحظة وأبو الشيبس وأبو الشمقمق وأبو العتاهية وابن الرومي والبحتري ومسلم بن الوليد والعكوك وأبو العيلاء والصولي وابن الجهم وغيرهم، فيغداد هي حاضنة للشعراء الذين تعرضوا للبخل.

والسؤال الذي يتبادر للأذهان لم كانت بغداد بالذات موطن مثل هذا الشعر؟ والإجابة عن السؤال تطلب معرفة الأحوال التي عاشتها بغداد مع بداية العصر العباسي، فبسقوط الدولة الأموية انتقلت الخلافة من دمشق إلى بغداد، وقاد هذا الانتقال تغير في الحياة، فبعد أن كانت البداوة غالبية على المجتمع الأموي، مثلاً علياً ولغة وأسلوباً، أضحت بغداد موطن الحضارة

والترف، وتخلص الشعراء من طبيعة البداوة إلى حد كبير فيها⁽¹⁾، فانتقال الخلافة من دمشق إلى بغداد لم يكن مجرد انتقال شكلي، بل كان إيذانا بتحول وانقلاب شامل، فلم تعد القبيلة هي المسيطرة على النتاج الأدبي⁽²⁾.

وأصبحت بغداد أكثر مدن العالم العربي أهمية، فبنيت فيها القصور الضخمة، وأمها التجار والصناع، وأضحى لكل طائفة منهم سوق خاصة، كسوق العطارين والبزازين والسيارفة والوراقين، وغدت مصدر الإشعاع في العلم والحياة الاجتماعية، ومنار الحضار ومركز التوجيه وتمتع الخلفاء وحواشيهم بالأموال التي كانت تجبى إليهم من الأمصار، وتمتلىء بها خزائهم، وكان الخلفاء ينفقون من هذه الأموال، ويبالغون في الترف ويتفنون في ذلك حتى بلغوا مبلغ الإسراف⁽³⁾.

وبلغ الرفاء في بغداد مبلغا عظيما، وتوافرت فيها الأغذية وكثرت، لكن السؤال هنا: هل كان لعامة الناس نصيب من هذا الثراء وذلك الترف؟ الأرجح أن هذا الثراء الطائل اقتصر إلى حد بعيد على طبقة خاصة، تصرفت بالثروة العامة، وحرمت عامة الشعب من حقوقهم، ومنعت عنهم الأعطيات لا سيما من لم يكن مرضيا عنه من السلطة الحاكمة، تلك السلطة التي احتكرت لنفسها المال والموارد الضخمة، فتتعمت بالحياة إلى غير حد، وقترت على غيرها في الرزق، واضطربت أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم، فكان من هؤلاء

(1) انظر فروخ، عمر: تاريخ الأدب العربي في الأعصر العباسية، ط3، بيروت، دار العلم للملايين، 1980، ص34.

(2) انظر شلبي، سعد إسماعيل: الشعر العباسي التيار الشعبي، الفجالة، مكتبة غريب، ص21-22.

(3) انظر ضيف: العصر العباسي الأول، ص17.

الشاكى من الاستغلال، والسائل الذي يتكفف الناس، والمظلوم الذي تصرف الحاكمون في أمواله⁽¹⁾.

وخير من يمثل هذه الفئة الشاكية البائسة الشاعر جحظة؛ لذا أقبلت عليه عامة الجماهير في بغداد، وتعلقت بشعره، فإذا نظم شعرا تلقاه الناس بشغف، وشاع في بغداد، ورواه الشباب وغير الشباب، وكان جحظة من فقراء العامة، الذين لا يملكون الضياع والممالك، يعيش في شظف وحرمان، وهو من أجل فقره وحرمانه، كان متبرما ساخطا، فكان يعطيهم من ظرفه، ولا يعطونه من ندام⁽²⁾، فقال:

أَصْبَحْتُ بَيْنَ مَعَاشِرٍ هَجَرُوا النَّدَى وَتَقَبَّلُوا الْأَخْلَاقَ عَنِ أَسْلَافِهِمْ
قَوْمٌ إِذَا اسْتَجَدَّتْهُمْ فَكَانَنِّي حَاوَلْتُ نَتْفَ الشَّعْرِ فِي آنَافِهِمْ⁽³⁾

وقد دفع ظلم حكام بغداد بعض الشعراء لوسمهم بالبخل، ومن الشعراء الذين شغفوا بهجائهم دعبل الخزاعي، يقول له أحد معاصريه: "ويحك قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد، وتركت الناس جميعا، فأنت دهرك كله شريد طريد هارب خائف، فلو كفت عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك؟"، فقال: "ويحك إنني تأملت ما تقول فوجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على رهبة، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم"⁽⁴⁾.

وقد وسم أبو دلامة أبا جعفر المنصور بالبخل في حضرته، وذلك حين قال:

(1) انظر الجوارى، أحمد عبد الستار، الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط2، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1991، ص49-50. وانظر ضيف: العصر العباسي الأول، ص 45.
(2) انظر البغدادي، أحمد بن علي: تاريخ بغداد، القاهرة، مطبعة السعادة، 1931، ص 65-68.
(3) البرمكي: الديوان، ص128.
(4) الأصفهاني: الأغاني، 137/20.

ماتَ النَّدى إِذْ مُتَّ يا بِنَّ مُحَمَّدٍ فَجَعَلْتَهُ لَكَ فِي التُّرابِ عَدِيلا
إِنِّي سَأَلْتُ النَّاسَ بَعْدَكَ كُلَّهُمْ فَوَجَدْتُ أَسْمَحَ مَنْ رَأَيْتُ بَخِيلا
أَلشِّقْوَتِي أُخِّرْتُ بَعْدَكَ لِلَّذِي يَدْعُ السَّمِينَ مِنَ الْعِجالِ هَزِيلا

فغضب المنصور، وقال: "لئن سمعتك بعدها تنشد هذه القصيدة لأقطع لسانك"⁽¹⁾.

وكانت بغداد مقصد الشعراء لما كان يغدقه الخلفاء والوزراء والقواد عليهم، ويكفي للتدليل على ذلك أن المهدي منح مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على مدحته، وكانت مجالس الخلفاء العباسيين في بغداد ساحات واسعة للشعر والمناظرة والجدال، فكانت بغداد مثل ما أراد بانيتها المنصور حاضرة الدولة العباسية، والجازبة لمشاهير الشعراء.

وبدا أثر الحضارة في شعر شعراء بغداد، وكان لها أثر في مضامين شعرهم، فضعف الاعتداد بالأنساب والتفاخر بالأموال، وتولدت معان جديدة في الهجاء، وتغيرت المقاييس الاجتماعية، فلم يعد الهجاء عند شعراء هذا العصر انتقاصا من كرامة الشخص، والطعن فيه وفي قومه، بل أضحى في أكثره وسما له بالمساوئ الخلقية وأهمها البخل، وأصبح هذا الوسم في كثير من الأحيان لأجل التندر والتسلية والعبث وإضحاك الآخرين⁽²⁾.

وكان للمكان وحضارته أثره كذلك على كثرة ما نظمته الشعراء في هذين القرنين من شعر البخل، فالمجتمع البغدادي مجتمع متعدد الأجناس، فيهم العربي والفارسي والنبطي وغيرهم، والملاحظ أن كثيرا من الشعراء الذين وصفوا البخلاء كانوا من غير العرب أو

(1) ابن المعتز، عبد الله: طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار فرخ، ط1، القاهرة، دار المعارف، 1956، ص54.

(2) انظر الجواري: الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص150.

مشكوكا في عروبتهم، ومنهم كبار الشعراء كبشار، وأبي نواس، وأبي العتاهية، ومسلم بن الوليد، وجحظة، وغيرهم، وقد كان هؤلاء طلائع التجديد في الشعر والانتقال به إلى طوره الجديد⁽¹⁾، وكان من آثار هؤلاء في الشعر أن تغير معيار الشعر واختلف تقويمه، فأصبحت خفة الطبع، والترويح عن النفس، وقربه من العامة أمورا تقاس به جودته، وهو ما يتفق وشعر البخل.

وإذا كانت بغداد حاضنة الشعر فلا يعني هذا عدم وجود شعراء نظموا في البخل من أمصار أخرى، فالبصرة وغيرها احتضنت بعض هؤلاء الشعراء، وإن كانوا قلة مقارنة بشعراء بغداد، ومن هؤلاء ابن هرمة وأبو تمام والحمدوي.

وخلاصة الأمر أن انتقال الحياة الأدبية إلى بغداد كان مفصلا في التاريخ العربي، وولادة جديدة لمضامين شعرية أفرزتها الحضارة الجديدة، وحملت هذه الحضارة تجديدا في الأغراض التقليدية، وتغيرا في صورها وغاياتها، فلم يعد الحديث عن البخل مجرد رسالة خلقية، بل أضحت كذلك وسيلة للتسلية والفكاهة.

⁽¹⁾ انظر الجواليقي: الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص57.

الفصل الثالث

الدراسة الفنيّة لشعر البخل

أولاً: البناء الفني لشعر البخل

مر أنفاً أنّ انتقال الخلافة إلى بغداد، وتغير الحياة الاجتماعية والفكرية والثقافية والسياسية، أدى إلى تغير في حركة الشعر، وقاد إلى تجديد فيه، شمل بناء القصيدة ومضامينها وسماتها بمستويات مختلفة، وكان للشعر الذي تناول البخل حظ من هذا التغير، فالشاعر شأنه شأن عامة الشعب كانت تغذيه ظاهرة الإحساس بالعصر وما دار فيه من صراع بين القيم الأدبية المحافظة، والقيم الجديدة المطورة.

والظاهرة الأولى في القصائد التي تناولت البخل هي خروج شعرائه عن المقدمات الطللية، وهي ظاهرة يلمسها الدارس في جل الأشعار التي مرت أنفاً في الدراسة، فشاعر البخل كان يميل إلى المباشرة في الدخول بغرضه، ومرد ذلك طبيعة الحياة الجديدة، وتحقيق التناغم والانسجام مع الواقع الحضاري الجديد، والميل إلى المباشرة والسرعة في مخاطبة عامة الناس، ذلك أنّ شعر البخل شعر اجتماعي غنائي، لذا لا عجب أن يفضل الشاعر أبو المخنف رغيف الخبز على تلك المقدمات، يقول:

فَدَعِ الطَّلُّولَ لِجَاهِلٍ يَبْكِي الدِّيَارَ الخَالِيَاتُ
وَدَعِ المَـدِيحَ لِأُمـُـرِّدٍ وَلِخِـمَادِمٍ وَلِغَانِيَاتُ
وَأُمـُـدَحْ رَغِيفَا زَانَهُ حَرَفٌ يَجِلُّ عَنِ الصِّفَاتِ⁽¹⁾

وتعكس هذه الأبيات شدة حرصهم على الرغيف والطعام، وفيها دعوة لتقديمها على المقدمة الطللية؛ نتيجة حالة البؤس والحرمان التي كان البعض يعانيها، وهو يدلل كذلك على

⁽¹⁾ ابن الجراح: الورقة، ص123.

التغير الحضاري والاجتماعي الذي شهده هذا العصر، حيث أصبحت المادة عند الكثيرين أهم من تقليد الماضين.

والمقطوعة باعتبارها شكلا من أشكال التعبير الشعري هي الظاهرة الثانية من الظواهر التي رافقت شعر البخل، ونظم الشعراء للمقطوعات لم يحدث عفوا، وإنما فرضتها الظروف الموضوعية التي عرفها القرن الثاني، سواء كان بسبب تعقد الحضارة وأسباب الحياة، وانصراف نفوس الناس عن الأعمال الأدبية الطويلة⁽¹⁾، أو بما كان من انتشار الغناء وما يتطلبه من أشعار قصيرة تصلح للإعادة والتكرار⁽²⁾، ثم إن هذه الأشعار موجهة للعامة، والمقطوعة يسهل حفظها وتداولها وانتشارها.

وتجلت المقطوعات التي تناولت البخل في الشعر العباسي بشكل لافت عند كثير من كبار الشعراء كبشار وأبي نواس ودعبل وأبي الشمقمق وغيرهم، أما الحضور البارز للمقطوعة، فكان عند الحمدوي وجحظة، ويعد الحمدوي من أكثر الشعراء الذين نظموا مقطوعات قصيرة تناولت كل منها غرضا مستقلا بذاته، ولم يعرف في الأدب العربي قبل الحمدوي أن تناول شاعر موضوعا بعينه بهذه الكثرة من القول وهذا الإلحاح كما فعل الحمدوي في الطيلسان والشّاة، ومقطوعاته هذه لا يتجاوز أطولها ثمانية أبيات⁽³⁾.

(1) انظر هدارة، محمد مصطفى: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ط1، القاهرة، دار المعارف، 1963، ص148-149.

(2) انظر خليف، يوسف: حياة الشعر في الكوفة في نهاية القرن الثاني الهجري، ط1، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1969.

(3) انظر المعبيد: شعراء بصريون من القرن الثالث الهجري، ص118.

ولا تعني كثرة المقطعات في شعر الشعراء الذين تناولوا البخل عدم نظمهم قصائد في البخل، ولكن كانت قليلة قياسا لما ورد في شعر البخل، فهذا الحكم من باب تغليب القاعدة على الاستثناء، فكما صدق هذا على الحمدي يصدق على العطوي والصولي وابن بسام وأبي علي بصير⁽¹⁾.

ونتيجة من نتائج طغيان ظاهرة نظم المقطعات على حساب القصيدة الطويلة، فقد أدى ذلك إلى نهوض هذه المقطعات بموضوع واحد، وهي الظاهرة المتممة لما مرّ، فالسخرية من المقدمة التقليدية والتجديد فيها قاد إلى اقتصار شعراء البخل على مضمون مستقل، وموضوع واحد، استجابة لإيقاع العصر وذوقه.

وقد اتخذت تلك المقطعات من الحوار والحكاية، أو السرد القصصي شكلا تعبيريا رافق التجديد في بناء هذه المقطعات والقصائد، وهو ما سيمر في الأبواب الآتية.

ثانياً: اللغة والأسلوب

لغة الشعر في أيّ عصر مرآة لحياته الاجتماعية والثقافية، وهي عنصر مهمّ من عناصر الشعر، ونظراً للتغير الذي طرأ على الحياة في العصر العباسي، فقد انعكس هذا التغير على ذوق العصر ولغته، فكان دافعا للشعراء ليسلكوا مسلكاً يناسب هذه الحياة، واختيار كل جميل مناسب، والشعر العباسي جسّد هذه المرحلة وواكب روح العصر، فانعكس هذا التطور في بنائه وموسيقاه وفي لغته.

⁽¹⁾ في إحصائية أجراها حسين العلاق لمجموع مقطعات لبعض الشعراء: الصولي: 172 مقطعة و10 قصائد، العطوي: 73 مقطعة و11 قصيدة، ابن بسام: 147 مقطعة و7 قصائد. انظر العلاق: الشعراء الكتاب في العراق في القرن الثالث الهجري، ص386.

لكن ما طبيعة هذه الظروف الحياتية التي قادت إلى التجديد في لغة الشعر؟ ربما يكون للظروف الاجتماعية المتمثلة بحالة الاستقرار في المدن، واتصال العرب بغيرهم من سكان من غير العرب كالفرس والروم والسريان والنبط أثره في هذا التطور والتجديد، ذلك أن اللغة بنت المجتمع، وربما يعود لهذا التقدم الحضاري في المجالات المختلفة، علمية وأدبية وفنية واقتصادية ودينية الدور الفاعل في هذا التجديد اللغوي، وقد انعكست هذه السهولة في كثرة المقطعات؛ لأنها موجهة إلى الشعب.

ولعل طبيعة اللغة العربية من حيث مرونتها واتساعها وقدرتها على التكيف تبعاً للظروف والأحوال المحيطة بها كان عنصراً مهماً في هذا التطور والتجديد فيها، فهي لغة قادرة على استيعاب الألفاظ الأعجمية والمعربة والدخيلة. كل ذلك قاد إلى لغة اكتسبت خصائص لغوية وأسلوبية وفنية ذات طابع جديد، ويتضح هذا أكثر ما يتضح في الشعر الاجتماعي الذي يعبر عن حياة الناس، ومنه الشعر الذي يتناول البخل والشح⁽¹⁾.

وشعر البخل هو جزء من هذا الشعر العباسي، وهو يتسم باللغة الواضحة السهلة البعيدة عن التكلف والغموض، ويلحظ فيه القارئ ابتعاد كثير من الشعراء عن الوحشي والغريب من الألفاظ؛ ويعود ذلك للامتزاج الحضاري والاجتماعي الذي كان له أثره في اللغة العربية ومن ثم لغة الشعر⁽²⁾، إضافة إلى أن هذا النوع من الشعر كان موجهاً في معظمه إلى عامة الشعب، وهو ما يتطلب سهولة اللفظ، ومن الأمثلة على سهولة لغتهم في شعر البخل قول أبي نواس:

(1) انظر العلاف، حسين: الشعراء الكتاب في العراق في القرن الثالث الهجري، ط1، بيروت، الأعلمي، 1975، ص402.

(2) انظر هدارة، محمد: اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، ط1، القاهرة، دار المعارف، 1963.

أَصْبَحْتُ أَجُوعَ خَلَقَ اللهُ كُلَّهُمْ وَأَفْزَعَ النَّاسِ مِنْ خُبْزٍ إِذَا وُضِعَا
خُبْزُ الْمُفْضَلِ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ إِلَّا لَا بَارِكَ اللهُ فِي ضَيْفٍ إِذَا شَبِعَا⁽¹⁾

ويلمس الدارس سمة السهولة في شعر الحمدي الذي وصف فيه طيلسان ابن حرب وشاة سعيد، واستخدام المفردات من لغة العامة وخطابهم، ومن مفردات التحسن والتلطف استخدام الحمدي للفظ "بحياتي" في قوله بشأن شاة سعيد:

كُلَّمَا أَضْجَعْتُهَا لِلدُّبِّ بُوْحَ قَالَتْ: بِحَيَاتِي⁽²⁾

والمفردة السائرة بين المتعلمين (إلى آخر الآية) في قوله:

فَسِيكَةُ يَكُهُمُ اللُّهُ هُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ⁽³⁾

ومفردة (ها هنا) في قوله:

صَاحَتْ عَلَيْهَا هَاهُنَا يَا أُخْتَنَا ذَاتَ الْعَجْفِ⁽⁴⁾

والعبارة المشهورة في مخاطبة الناس بعضهم بعضا (والسلام) في قوله على لسان بخيل:

لِيْنِ وَضِعَ الْخَوَانُ وَلَا حَ ضَيْفٌ لِأَخْتِظِنَ رَأْسَكَ وَالسَّلَامُ

(1) أبو نواس: الديوان، ص 349.

(2) النعالي: ثمار القلوب، ص 376.

(3) البغدادي: البخلاء، ص 142-143. اقتباس من الآية 137 من سورة البقرة.

(4) النعالي: ثمار القلوب، ص 376.

وقد سئل الحمدوي ما بالك لا تستعمل في شعرك من الغريب ما تسائل عنه كما يفعل الشعراء؟ فقال: لئن أقول شعرا قريبا من القلوب، يلذّه من سمعه، خير من أقول شيئا متعقدا تضلّ فيه الأوهام⁽¹⁾.

ومن الظواهر اللغوية التي رافقت شعر البخل استعمال ألفاظ أجنبية غير عربية دخلت بفعل الانفتاح الاجتماعي والسياسي والثقافي، والانتقال من حياة البداوة إلى حياة حضارة المدن، وتغلغل غير العرب في الحياة الأدبية والثقافية آنذاك، ومثال ذلك استخدام بشار بن برد (الخان) في هجاء قوم، يقول:

قَوْمٌ إِذَا مَا أَتَى الْأَضْيَافُ مَنَزَلَهُمْ لَمْ يُنْزِلُوهُمْ وَدَلَّوْهُمْ عَلَى الْخَانِ⁽²⁾
وهي فارسيّة معربة⁽³⁾.

ومنه قول إبراهيم الموصليّ محبذا الصديق الذي يرضى بالقليل:

يَرْضَى بِلَوْثَيْنِ مِنْ كَثْكَ وَمِنْ عَدَسٍ وَإِنْ يَشَاءُ فَرَيَّتُونِ بِطَسُوجٍ⁽⁴⁾
فالطسوج كلمة معربة تعني مقدارا من الوزن يساوي حبتين من الدانق⁽⁵⁾.

وكرر الشعراء في هذا العصر كلمة جرادق، وهي فارسيّة معربة⁽⁶⁾، ومنه قول أبي

تمام:

(1) الأصفهاني: الأغاني، 267/7.

(2) بشار: الديوان، ص 624.

(3) ابن منظور: لسان العرب، مادة خون.

(4) البغدادي: البخلاء، ص 137.

(5) ابن منظور: لسان العرب، مادة طسج.

(6) المصدر السابق، مادة جردق.

قَدْ كَانَ يُعْجِبُنِي لَوْ أَنَّ غَيْرَتَهُ عَلَى جَرَادِقِهِ كَانَتْ عَلَى حُرْمَةٍ⁽¹⁾

ومنه قول الحمدي في شاة سعيد:

يَقُولُ لِي الْإِخْوَانُ لَمَّا طَبَخْتُهَا أَتَّطْبِخُ شَطْرَنَجًا عِظَامًا بِبِلَا لَحْمٍ

فَقُلْتُ: كُلُوا مِنْهَا، فَقَالُوا تَهَزُّوْا أَتَطْعَمُنَا نَاوُوسَ قَوْمٍ مِنَ الْعُجْمِ⁽²⁾

فالشطرنج فارسيّ معرب⁽³⁾، وناووس من الألفاظ الجديدة والدخيلة، وهو حجر منقور

تجعل فيه جثة الميت عند النصارى⁽⁴⁾، وقد كرر الحمدي كلمة طيلسان، وهي لفظ فارسيّ

معرب، في معظم مقطوعاته التي تحدّثت عن طيلسان ابن حرب، ولعلّ الحمدي أراد من

استخدامه لمثل هذه الألفاظ الدخيلة أن يؤلم مهجوه وأن يؤكّد المعاني التي يريد إيصالها للقارئ،

وهي شدة بخل سعيد، حيث صورّ ضعف هذه الشاة المهداة إليه كحجارة الشطرنج أو كالحجر،

فهي لا تسمن ولا تغني من جوع.

والدرهم كذلك كلمة فارسيّة معربة⁽⁵⁾، وقد وردت في أشعارهم بكثرة ومنه قول أبي

العيناء:

إِنَّ الدَّرَاهِمَ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا نَكَسُوا الرِّجَالَ مَهَابَةً وَجَلَالًا⁽⁶⁾

(1) التبريزي: شرح ديوان أبي تمام، 368/2.

(2) الثعالبي: ثمار القلوب، ص376.

(3) ابن منظور: لسان العرب، مادة شطرنج.

(4) المصدر السابق، مادة نوس.

(5) المصدر السابق، مادة درهم.

(6) أبو العيناء، محمد بن القاسم، ديوان أبي العيناء ونوادره، تحقيق أنطوان القوال، بيروت، دار صادر، 1993، ص41.

ومن الألفاظ المعربة الواردة في شعر البخل كلمة (آزاد)، وقد استخدمها ابن الرومي

في قوله:

يَا ذَا الَّذِي ضَنَّ بِآزَادِهِ تَعَرَّضَا مِنَّا لِتَوَيْخِهِ
مَا كُنْتُ أُدْرِي أَنَّ آزَاذَكُمْ مُعْتَصِمٌ بِاللَّهِ فِي ذَيْخِهِ⁽¹⁾

فلفظ (آزاد) فارسيّ معرب، وهو من أجود أنواع التمر⁽²⁾.

ويلاحظ أن شعراء هذين القرنين وما تلاهما قد أكثروا من استخدام الألفاظ الفاحشة، مثل الاست وغيره من هذه الألفاظ؛ ومرد ذلك تأثر الشعراء - وكثير منهم من غير العرب - بمظاهر الحضارة وثقافات الأمم الأخرى، واختلاط الأجناس، والضعف الديني، وتوظيفها في خدمة الهجاء والسخرية من الآخرين، ومن ذلك قول ابن الرومي:

تَجَبَّبُ سُؤْلِيمَانَ قُفْلَ النَّدَى فَقَدْ يَأْسُ النَّاسُ مِنْ فَتْحِهِ
وَلَوْ كَانَ يَمْلِكُ أَمْرَ اسْتِهِ لَمَا طَمَعَ الْحُشُّ فِي سَلْحِهِ⁽³⁾

وقول ابن بسام في هجائه المقذع لوالده، حيث استعان بالألفاظ العامية الشعبية ليؤكد

المعنى الذي يريده وهو إثبات البخل في والده، يقول:

لَأَسْمِيَّ دَرْنُ الثَّوْبِ نَظَيْفُ الْقَعْبِ وَالْقَدْرِ
أَبُو النَّتْنِ أَبُو الدَّقْرِ أَبُو الْبَعْرِ أَبُو الْجَعْرِ⁽⁴⁾

(1) ابن الرومي: الديوان، 367/1. الذبيح: قنو النخلة وعذقها بما فيه من رطب. لسان العرب، مادة ذبخ.

(2) ابن منظور: لسان العرب، 685/1.

(3) ابن الرومي: الديوان، 322/1. الاست: العجز. لسان العرب، مادة سته.

(4) ابن أبي الحديد، عبد الحميد: شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل، بيروت، دار الكاتب العربي، 1959. 258/7.

فقد استعان بألفاظ شعبية كلثيم والنتن والبعر وغيرها ليقذع في المهجور، وذلك من خلال وسمه باللؤم والقدارة ونظافة آنية طعامه وقدره، وهو بذلك ينفر الناس منه.

ومن الظواهر اللغوية التي برزت في لغة الشعر الذي تناول البخل في هذين القرنين ما ضمنه الشعراء من ألفاظ ومصطلحات (البيئات الكلامية)، ومنه قول الحمدي في وصف بلى طيلسان ابن حرب:

غَابَ تَحْتَ الْحَسِّ حَتَّى لَا يُرَى إِلَّا قِيَا⁽¹⁾

فالقيا من الألفاظ التي كانت تدور على ألسنة المتكلمين في هذا العصر، وقد وظفه الشاعر لبيان شح هذا الرجل الذي أهدها هذا الطيلسان الذي لا يكاد يرى من قدمه وتلفه.

ومنه قوله فيه أيضا:

فَلَوْ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَلَامِ يَرَوْنَهُ لَمَارَوْكَ فِيهِ وَادَّعَوْا أَنَّهُ عَرَضُ⁽²⁾

فجز البيت مستمد من ألفاظ أهل الكلام ومصطلحاتهم، والشاعر يريد من هذا أن يبين خلوقه وبلى هذا الطيلسان، فلو رآه علماء الكلام لجادلوا فيه وادَّعَوْا أَنَّهُ عَرَضُ وليس حقيقة، بمعنى أَنَّ الطيلسان أضحى صورة لا حقيقة، وأسلوبه هذا ساعده على تحقير المهجور وإظهار بخله من خلال طيلسانه.

(1) الفيرواني: زهر الآداب، 4/1119.

(2) المصدر السابق، 4/1117.

ومن ذلك أيضا قول عصابة الجرجاني⁽¹⁾ ينعت خوان أمير بألفاظ ومصطلحات عقلية

استمدّها من أهل الكلام والفلاسفة:

خَوَانُ الْأَمِيرِ مَعْمِي الْمَكَانِ لَهُ شَبَحٌ لَيْسَ بِالْمُسْتَبَانَ
يُورِي بِالتَّوَهُّمِ بِالمَجَسِّ وَبِالْخَبْرِ الْفَذِّ لَا بِالْعِيَانِ
دَعَا بِالْخَوَانِ عَلَى لُؤْمِهِ لِكَيْ مَا يُقَالُ دَعَا بِالْخَوَانِ⁽²⁾

فمصطلحات التوهّم، والمجسّ، والشبح، والمكان المستمدة من بيئة أهل الكلام قد أسهمت في إظهار المعنى المراد، وهو إظهار بخل هذا الأمير، حتّى إنّ طعامه ومائدته لا ترى بالعين المجردة، بل هو مجرد معنى عقلي لا مادي.

ومن الظواهر الأسلوبية التي رافقت شعر البخل السرد القصصي، فالناقد والقارئ لشعر هذا العصر في هذا الموضوع يلحظ أنّ كثيرا من الشعر الذي استطاع أن يصف البخل والبلاء جاء ضمن قصة أو حكاية بأسلوب سرد قصصي.

وقد يتساءل المرء عن السبب في لجوء الشعراء الذين تحدّثوا عن البخل إلى السرد القصصي، لعل ذلك يعود لأنّ شاعر البخل وجد في الشعر القصصي ذي النزعة التمثيلية حرية أكبر لإيصال فكرته بفعل الأجواء الدرامية التي تسمح بالحركة والتّنقل، ممّا يسهم في توضيح الصورة والوصول للغرض، مع تشويق القارئ وشده إلى الأبيات بحيث تبعد القارئ عن الملل والرتابة وتثير الذهن وتدخله في جو من التّهف، إضافة إلى ما للقصّ من أهمية في كشف

(1) إسماعيل بن محمد بن حاتم الباذامي، أبو إسحق الشاعر، لقب بعصابة، أصله من جرجايا، إحدى مدن العراق شرقي دجلة، امتاز شعره بالفحش والتعسف، كان متشيعا، هجا العباسيين في شعره. انظر الصفي: الوافي بالوفيات، 125/9.

(2) الصولي، محمد بن يحيى: أدب الكتاب، تصحيح وتعليق: محمد بهجة، ط1، بغداد، المكتبة العربية، ص60.

المكنون والغامض وجعل النص أكثر قدرة على الإيحاء، إضافة إلى أن وصفهم للبخل كان من واقع قصة عايشوها، ولعل السبب في شيوع هذه الظاهرة كشكل تعبيرى في هذا الشعر غلبة العنصر العقلي فيهما، وظهور حركات إسلامية تستند في أفكارها إلى العقل، واتصال ذلك بالمناظرات والجدل والحوار وهو ما شاع وانتشر في أدب وفكر هذين القرنين⁽¹⁾.

وأكثر ما يظهر الأسلوب القصصي عند الحمدي في وصف طيلسان ابن حرب وشاة سعيد، ومن ذلك قوله في الطيلسان:

طَيْلَسَانَا قَدْ كُنْتُ عَنْهُ غَنِيًّا	يا ابن حربٍ أَطَلْتُ فَقْرِي بَرَقُوي
ضِ عَلَى النَّارِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا	هُوَ فِي الرَّقْوِ آلُ فِرْعَوْنَ فِي الْعَرِّ
فَتَغَنَيْتُ إِذْ رَأَوْنِي زَرِيًّا	زُرْتُ فِيهِ مَعَاشِرًا فَازْدَرُونِي
وَعَلَى الْبَابِ قَدْ وَقَفْتُ مَلِيًّا ⁽²⁾	جِئْتُ فِي زِيٍّ سَائِلٍ كَيْ أَرَاكُمْ

فالحمدي في هذه المقطوعة يصور لنا بخل ابن حرب من خلال طيلسان الذي أهده إليه بأسلوب قصصي، فهذا الطيلسان الذي أكسبه الفقر بعد الغنى كان سببا في إهانته وطرده، وذلك عندما زار قوما وهو يلبسه، وهو بهذا الأسلوب القصصي الظريف قرّب الفكرة التي أرادها للقارئ، وشدّه إلى غايته وأبياته.

وكان الأسلوب القصصي حاضرا في جلّ مقطوعاته التي تصوّر الشاة التي أهدها له سعيد، يقول في إحدى هذه المقطوعات:

(1) انظر العلاق: الشعراء الكتاب في العراق في القرن الثالث الهجري، ص394.

(2) الحمدي: جمع الجواهر، ص152.

سَأَلَهَا الضَّرُّ والتَّأَلْفُ	لِسَعِيدٍ شُويْهَةٌ
رَجُلًا حَامِلًا عَافُ	قَدْ تَغَنَّتْ وَأَبْصَرَتْ
بُرءُ دَائِي مِنَ الدَّنْفِ	بِأَبِي مَن بَكَفِّهِ
فَأَتَتْهُ لَتَعْتَلِفُ	فَاتَاهَا مُطْمَعًا
تَتَغَنَّى مِنَ الأَسْفِ	فَتَوَلَّى فَأَقْبَأَتْ
عَذَّبَ القَلْبَ وَأَنْصَرَفُ(1)	لَيْتَهُ لَمْ يَكُ وَقَفُ

فشاة سعيد الهزيلة تغني عندما ترى رجلا يحمل علفا، وتأمل منه أن يشفق عليها
ويطعمها من هذا العلف الذي حرمت منه وهي في كنف سعيد ورعايته، واقتربت سعيدة بهذا
الطعام النفيس، لكن الأمور تأزمت، فالرجل تركها تعاني ألم الجوع والحرمان، والعذاب
والهوان، وتغني بحسرة وألم، فنحن هنا أمام قصة لها مقدمة وخاتمة وفكرة وشخص، هذه
القصة المؤلمة لها غاية وهدف، وهو وصف بخل سعيد وشاته المريضة الهزيلة.

والأسلوب القصصي الدرامي في موضوع البخل حاضر عند الحمودي في غير
الطيلسان والشاة، ومثاله قوله يصف بخل شخص كناه أبا زرارة:

رَأَيْتُ أبا زُرارةَ قالَ يَوْمًا	لِصَاحِبِهِ وَفِي يَدِهِ الحُسَامُ
لَإِنِ وُضِعَ الخَوَانُ وِلاَحَ شَخْصٍ	لَأَخْتَطِفَنَّ رَأْسَكَ والسَّلامُ

(1) الكنتي: فوات الوفيات، 174/1.

فهذه اللوحة القصصية المثيرة للضحك تبدأ بشخص من الموسرين في عصر الحمدي - وهو أبو زرارة - يوصي حاجبه وهو يحمل الحسام بوصية ظريفة، وهي عدم سماحه لأي شخص كان بأن يقرب بيته وطعامه، وإلا قطع رأس حاجبه، ويكمل هذه اللوحة بقوله:

فَقَالَ: سِوَى أَبِيكَ فَذَلِكَ شَيْخٌ بَغِيضٌ لَيْسَ يَرَدُّعُهُ الْكَلَامُ
فَقَامَ وَقَالَ فِي حَنَقٍ إِلَيْهِ بِيَّتٍ لَمْ يَرُدَّ فِيهِ الْقِيَامُ
أَبِي وَابْنَا أَبِي وَالْكَلْبُ عِنْدِي بِمَنْزِلَةٍ إِذَا حَضَرَ الطَّعَامُ

ويستمر الحوار الدرامي في هذه الأبيات بين أبي زرارة وحاجبه، فالحاجب لا يعرف كيف يتصرف مع والد أبي زرارة الذي لا يبالي بكلام الحاجب ويصرّ على الدخول، لكن جواب أبي زرارة كان قاسياً ويؤكد بخله ويعمق هذه السمة فيه، فأبوه وإخوته بمنزلة الكلب عنده إذا وضعت مائدة الطعام.

ويختتم لوحته القصصية المثيرة بالتأكيد على موقف أبي زرارة من إطعام الآخرين من طعامه، حيث يقول:

وَقَالَ لَهُ: أَبْنُ لِي يَا ابْنَ كَلْبٍ عَلَى خُبْزِي أُصَادِرُ أَمْ أُضَامُ؟
إِذَا حَضَرَ الطَّعَامُ فَلَا حُقُوقٌ عَلَيَّ لِوَالِدِي وَلَا زِمَامُ
فَمَا فِي الْأَرْضِ أَفْبَحُ مِنْ خَوَانٍ عَلَيْهِ الْخُبْزُ يَحْضُرُهُ الزَّحَامُ⁽¹⁾

فنحن أمام قصة درامية اكتملت عناصرها من ممثلين وحوار وحركة وصور، راويها الحمدي، وبطلاها أبو زرارة البخيل الموسر وحاجبه الذي هو أشدّ بخلا من سيّده، ومكانها

(1) الأبيشيبي: المستطرف، 378/1.

بيت أبي زرارة، وزمنها الساعة التي تسبق ساعة تناول الغذاء، وهي أشدّ الساعات على البخيل؛ لتخوفه من أن يطرق بابه سائل أو زائر، والحضور هم من يعيشون في القرن الثالث الهجري، بيد أنّ هذه اللوحة القصصية الدرامية تمتلك سمة امتداد الزمن واختلاف المكان لأنّ سمة البخل وجدت وما تزال وستبقى على مرّ العصور وامتداد الأيام؛ ذلك أنّها طبع وجد عند بعضهم.

وفي لوحة قصصية أخرى، وهي أبيات يصف فيها منصور الفقيه عودة صديقه البخيل أبي نصر (فتح) من الحجّ دون أن يحمل معه هديّة له ولا لغيره، وتبدأ القصة لحظة إياب الحجّاج، فبادرهم بالسؤال عن صديقه، ليخبره الحجاج أنّه رحل من مكة مبكراً، ووصل قبل فترة، يقول:

سَأَلْتُ الْحَجَّاجَ وَقَدْ أَقْبَلُوا	يَوْمَونَ مِصْرَ مِن أَرْضِ
فَقُلْتُ لَهُمْ بَعْدَ إِبْنَائِهِمْ-	أَفَتَحُّ بِمَكَّةَ أَمْ قَدْ قَدِمَ؟
فَقَالُوا: تَرَحَّلَ مِنْ قَبْلِنَا	لِعِشْرِ لَيْالٍ تَوَالَتْ حُرْمُ

وعندما يلتقي بعبده صالح، يسأله هذا عن سبب تأخره من زيارة صاحبه الذي وصل من الحج، فيذهل منصور عندما يعلم أنّ صديقه وصل، ويصاب بالدّهشة؛ لأنّه لم يجلب معه له هديّة من مكّة، يقول:

فَصَادَقَنِي صَالِحٌ عَبْدُهُ	فَقَالَ فَدَيْتُكَ لِمَ تَلْتَدِمُ؟
وَمَاذَا دَعَاكَ إِلَى مَا أَرَى	فَقُلْتُ الْجِدَارُ عَلَى ذِي الْكَرَمِ
فَقَالَ: أَلَمْ يَأْتِ مِنْ جُمُعَةٍ	فَقُلْتُ كَذَبْتَ فَأَيْنَ الْأَدْمُ؟

وهنا يبدأ منصور بتعداد هذه الهدايا التي يجلبها الحجاج معهم؛ كالفقاف، والأقداح، والنعال، والفراء، والكساء، والبرم، والقديد، والملوز، وينكر عليه عدم إحضار شيء منها له، يقول منصور:

وَأَيْنَ الْفِقَافُ الْحِسَانُ الْقُدُودِ وَأَقْدَا حُ جَيْشَانِ تِلْكَ السَّلْمِ
وَأَيْنَ النَّعَالُ وَأَيْنَ الْفِرَاءُ وَأَيْنَ الْبُرُودُ وَأَيْنَ الْبُرْمِ⁽¹⁾
وَأَيْنَ الْقَدِيدُ قَدِيدُ الظُّبَاءِ وَأَيْنَ الْمَلُوزُ مِثْلَ الْعَنَمِ⁽²⁾
فَقَالَ: وَحَقُّكَ مَا جَاءَنَا بِشَيْءٍ سِوَى نَفْسِهِ فَاغْتَمِ⁽³⁾

والناظر إلى عناصر هذه اللوحة القصصية يجد أنها قد اكتملت ونضجت معالمها.

ومن هذه اللوحات القصصية الدرامية وصف لحظة البرمكيّ زيارة قام بها لبخيل، ويبدأ لحظة هذه اللوحة بتقديم هذا البخيل لحظّة بيضة وقدحا، ثم يعرض عليه إن شاء طعاما آخر، يقول:

أَطْعَمَنِي بِيْضَةً وَتَأَوَّلَنِي مِنْ بَعْدِهَا - دُقْتُ فَقَدَهُ - قَدَحًا
وَقَالَ أَيُّ الْأَصْوَاتِ يَا ابْنَ أَخِي تُرِيدُ؟ إِنِّي أُرَاكَ مُقْتَرِحًا

وهنا تأتي لحظة التآزم حين يطلب الضيف المزيد من الطعام، وهنا يشتاظ مضيفه غضبا وكأنه كان سكران فصحا عندما سمع طلب لحظة، يقول لحظة واصفا الحوار بينهما:

(1) البرم: ثمر الأراك. لسان العرب، مادة برم.

(2) العنم: شجر لين الأغصان يشبه به لبنان، واحدها عنمة وهو مما يستاك به. لسان العرب، مادة عنم.

(3) القرطبي: بهجة المجالس، 1/285-286.

فَقُلْتُ مَقْلَى وَصَوْتُ جَرْدَقَةٍ إِنَّ جَاذَ ذَا الْاِقْتِرَاحُ أَوْ صَا حَا
فَانْتَبَطَّ مِنْ ذَاكَ وَأَمْتَلَا غَضَبَا وَكَانَ سَكْرَانًا طَافِحًا فَصَا حَا

عندها يضطر لحظة للتراجع عن طلبه، فيدعي أنه لم يكن جادا في طلبه، بيد أن مضيفه يرى في مثل هذا المزاح ثقلا ولا يقبله الحر.

فَقُلْتُ إِنِّي مَرَحْتُ قَال: كَذَا رَأَيْتُ حُرًّا بِمِثْلِ ذَا مَرَحَا⁽¹⁾

ونحن في هذه اللوحة أمام قصة اكتملت فصولها وعناصرها، فشخصها لحظة ومضيفه، وزمانها وقت وجبة طعام في العصر العباسي، ومكانها بيت مضيفه، وأحداثها متسلسلة بدأت من لحظة الزيارة وتناول الطعام وغضب المضيف، وخاتمتها اعتذار لحظة عن طلبه، والحوار كان العنصر الأساسي في توجيه الأحداث، والهدف وصف بخل هذا المضيف، وهو ما نجح فيه لحظة، بحيث جعل القارئ مشدودا إلى هذه القصة الطريفة.

ثالثاً: توظيف الموروث ومظاهره

تميّز شعر البخل بمجموعة من الأساليب التي وظّفها الشعراء، ومنها:

- المثل:

فقد وظّف الشعراء الذين نظموا في البخل الأمثال؛ وذلك لتأكيد المعاني وتقريبها للأذهان، وجعلها سهلة على اللسان، ومن استخدامهم الأمثال وتضمينها قصائدهم في البخل قول بشرّ يعاتب يزيد بن منصور على شحّه بعد أن كان جوادا، يقول:

⁽¹⁾ البرمكي: الديوان، ص61.

فَأَنْتَ بِمَا تَزْدَادُ مِنْ طَوْلِ رِفْعَةٍ وَتَنْقُصُ مِنْ جَدِّ لِدَاكَ بِإِفْرَاطِ
كَسِنُورِ عَبْدِ اللَّهِ بِيَعِ بِدِرْهِمٍ صَغِيرًا فَلَمَّا شَبَّ بِيَعِ بِقِرَاطِ⁽¹⁾

والمثل (كأنه سنور عبد الله)، يضرب لمن كان ذا شأن وهو صغير، فلما كبر قلَّ شأنه وأصبح بلا قيمة⁽²⁾، وبهذا المثل استطاع أن يصف لنا مدى التّغيير الذي حلَّ بابن منصور.

ومنه قوله في هجاء يعقوب بن داود الذي منع عليه العطاء وبخل عليه:

فَسَقَيْتَهُمْ وَحَسِبْتَنِي كَمُونَةً نَبَتَتْ لِزَارِعِهَا بَغَيْرِ شَرَابِ⁽³⁾

فالببيت مستمد من المثل (أخلف من شرب الكمون)، بمعنى أنه يعد بالعطاء ولا يعطي⁽⁴⁾، فهو كالكُمونة.

ومن الشعراء الذين كان للمثل حضور في أشعارهم ابن هرمة، ومن ذلك قوله يعرض

بمعاوية بن عبد الله:

فَأِنِّي وَمَدْحُكَ غَيْرَ الْمُصِيٍّ بِ كَالْكَلْبِ يُنْبِحُ ضَوْءَ الْقَمَرِ
مَدْحُكَ أَرْجُو لَدَيْكَ الثَّوَابَ فَكُنْتُ كَعَاصِرِ جَنْبِ الْحَجَرِ⁽⁵⁾

فقد أفاد ابن هرمة من معنى المثل (أهون من النباح على سحاب)، والمثل يضرب

للتعبير عن عجز الإنسان عن تحقيق مراده وغرضه، والقمر إذا طلع من المشرق يكون مثل

(1) بشار: الديوان، ص550.

(2) النيسابوري، أحمد بن محمد: مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين، ط1، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، 1955، 173/2.

(3) بشار: الديوان، ص56.

(4) النيسابوري: مجمع الأمثال، 254/1.

(5) سلطان، منير: العدول في شعر ابن هرمة، ص182، الإسكندرية، منشأة المعارف، 2007.

قطعة غيم⁽¹⁾، وهو هنا يشبه نفسه بالكلب الذي ينبح، والممدوح بالقمر الذي لا يأبه للبشر، ولا يشعر بهم فهو في دنياه مقيد بالشمس، دائر في فلکها، وقد منح المثل الأبيات قوة في المعنى، وأدى دوراً مهماً في انتشار الأبيات وشيوعها وحضورها على الألسن.

وأما أبو الشمقمق، فقد أحسن في توظيف المثل بلفظه ومعناه في هجاء سعيد بن سلم في

قوله:

هَيْهَاتَ تَضْرِبُ فِي حَدِيدِ بَارِدٍ إِنَّ كُنْتَ تَطْمَعُ فِي نَوَالِ سَعِيدِ
وَاللَّهِ لَوْ مَلَكَ الْبِحَارَ بِأَسْرِهَا وَأَتَاهُ سَلْمٌ فِي زَمَانِ مُدَوِّدِ
يَبْغِيهِ مِنْهَا شَرِبَةً لَطَهْرِهِ لِأَبِي وَقَالَ: تَيَمَّمَنَّ بِصَعِيدِ⁽²⁾

فالمثل (تضرب في حديد بارد)، يضرب لليأس من أمر مستحيل تحقيقه، ولمن طمع في غير مطمع⁽³⁾، وقد أفاد منه الشاعر في إثبات بخل المهجوع، فهو لا يشعر بغيره ولا يبالي بالمحتاجين، وزاد من قوة المعنى استخدامه لاسم الفعل هيهات، ليدلّل بذلك على اليأس من نواله، واستخدم الشاعر الكناية في البيت الثاني من خلال القسم ليؤكد حرص سعيد هذا على المال، حتّى إنّه لو ملك مياه البحار وجاء والده يطلب إليه قليلاً من الماء ليتوضأ به لما أعطاه، ولطلب إليه أن يتيمّم بالتراب.

(1) النيسابوري: مجمع الأمثال، 408/2.

(2) المبرد، محمد بن يزيد: الكامل في اللغة والأدب، بيروت، مكتبة المعارف، 25/2.

(3) النيسابوري: مجمع الأمثال، 125/1.

ووظف دعبل المثل بمعناه مع تحوير بسيط في لفظه حين قال:

يا جَوَادَ اللِّسَانِ مِنْ غَيْرِ فِعْلٍ لَيْتَ فِي رَاحَتَيْكَ جَوَدَ اللِّسَانِ
عَيْنُ مَهْرَانَ قَدْ لُطِمَتْ مِرَارًا فَاتَّقِ ذَا الْجَلَالِ فِي مَهْرَانَ⁽¹⁾

وشطر البيت الثاني حمل معنى المثل "هو يلطم عين مهراّن"، وهو مثل يضرب للرجل يكذب في حديثه⁽²⁾، وقد استعان بهذا المثل؛ لأن عبد الله بن طاهر قد وعده وعدا ولم يوف بوعده له.

ومن ذلك تضمين ابن بسّام المثل في قوله يصف بخل أبيه وقفر مطبخه:

مَطْبَخُهُ قَفْرٌ وَطَبَّاخُهُ أَفْرَعٌ مِنْ حَجَّامِ سَابِاطٍ⁽³⁾

وقد أفاد ابن بسّام من المثل (أفرغ من حجّام ساباط)، فحجّام ساباط يضرب به المثل في الفراغ، فيقال: أفرغ من حجّام ساباط، ويذكر أنّ هذا الحجّام حجم مرة كسرى أبرويز فأمر له بما أغناه عن الحجامّة، فكان لا يزال فارغا مكتفيا بما حصل عليه من كسرى، فضرب بفراغه المثل⁽⁴⁾، والشاعر شابه حال مطبخ أبيه، بحال هذا الحجّام الفارغ.

ومن ذلك أيضا قول منصور الفقيه:

هَوَانُ الْبَخِيلِ عَلَى أَهْلِهِ هَوَانُ قَعَيْسٍ عَلَى عَمَّتِهِ⁽⁵⁾

(1) الخزاعي: ديوان دعبل، ص 93.

(2) النيسابوري: مجمع الأمثال، 2/395.

(3) الثعالبي: ثمار القلوب، ص 235.

(4) النيسابوري: مجمع الأمثال، 2/86.

(5) الفحطاني: منصور بن إسماعيل الفقيه حياته وشعره، ص 162.

فالمثل (أهون من قعيس على عمته) جاء به ليدل على احتقار البخيل من قبل من يحيط به حتى من أهله، فقعيس هذا كان قد أتى عند عمته في ليلة مطرة ضيفا، لكنها أدخلت كلبا بدلا منه وتركته في المطر، فمات من البرد⁽¹⁾.

فمن هذه النماذج نرى أنّ استعانة الشعراء بالأمثال جعلت شعرهم أقرب إلى فهم الناس، وأكثر توكيدا للمعنى المراد، وكتب له الانتشار والبقاء، فلجوء الشاعر إلى استعمال الأمثال لا يبغى سوى الشهرة والانتشار لشعره، وجعله يدور على كل لسان⁽²⁾.

- الأفكار والمعتقدات:

ومن مظاهر توظيف الموروث في شعر البخلاء التي رافقت شعر البخل توظيف الشعراء الذين تعرضوا للبخل بعضا من معتقدات العرب وعاداتهم الاجتماعية للتدليل على بخل شخص ما، ومن هذه المعتقدات التي توارثوها، ووجدت صداها في الشعر أن زرقعة العيون من ملامح الشر عندهم، وقد وظف بشار هذا المعتقد فقال في هجاء بخيل:

وَالْبَخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلٌّ زَرَقُ الْعُيُونِ عَلَيْهَا أَوْجَةٌ سُودٌ⁽³⁾

فزرقة العيون مستبشعة عند العرب السمر، وهي من ملامح الشر في معتقداتهم⁽⁴⁾،

(1) النيسابوري: مجمع الأمثال، 407/2.

(2) انظر إبراهيم: الشعر الهزلي العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص 192.

(3) بشار: الديوان، ص 415-416.

(4) انظر النيسابوري: مجمع الأمثال، 385/2.

وممن تشاءموا منهم لزرقة عيونهم: البسوس والزبّاء، وقيل إنّ سبب تشاؤمهم أن أعداءهم الروم كانوا زرق العيون، فكنوا بأزرق العين عن العدو⁽¹⁾.

ومن العادات التي اعتاد عليها العرب وكان لها صداها في الشعر العباسي جلب الحاج القادم من الحج الهدايا كالنعل والخاتم، وقد وظف بشار هذه العادة في شعره فقال:

لَمْ تَهْدِنَا نَعْلًا وَلَا خَاتِمًا مِنْ أَيَّنَ أَقْبَلْتَ مِنَ الْحَشِّ⁽²⁾

فهذا الحاج لم يتخلق بعادات العرب وأخلاقهم ، فقد بخل على قومه ولم يحضر معه الهدايا، فكأنه لم يكن في بلاد الحرمين.

ومن العادات الاجتماعية التي عرفت عند العرب تمزيق الجيوب والملابس عند المصيبة، يقول جحظة:

وَصَاحِبِ زُرْتُهُ فَقَدَمَ لِي كِسْرَةَ خُبْزٍ وَعَيْئُهُ عَبْرِي
وَقَالَ مَا تَشْتَهِي؟ فَقُلْتُ لَهُ: قَطْرَةَ مِلْحٍ أَوْ كِسْرَةَ أُخْرَى
فَمَزَّقَ الْجَيْبَ ثُمَّ لَأَمَنِي وَقَالَ: هَذَا الْمُصِيبَةُ الْكُبْرَى⁽³⁾

وسبقه في المعنى نفسه طرفة بن العبد حين قال:

فَإِنْ مُتْ فَأَنْعِينِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشُقِّي عَلَيَّ الْجَيْبَ يَا ابْنَةَ مَعْبَدٍ⁽⁴⁾

(1) انظر مطاوع، وفاء: الموروث الشعبي في التراث الشعري في العصر العباسي الأول، الإسكندرية، منشأة المعارف، 2009، ص105.

(2) الأصبهاني: الأغاني، 212/3. الحش: موضع الغائط. لسان العرب، مادة حشش.

(3) اليرمكي: الديوان، ص90.

(4) ابن العبد، طرفة: الديوان، ص54.

وقد أفاد منها جحظة في وصف حال مضيفه عندما طلب إليه جحظة المزيد من الطعام،

ليسهام استحضاره لهذه العادة في جمال لوحته الفنية وسخريته من مضيفه الذي يبخل عليه.

ووظف الشعراء الأساطير والخرافات للإشارة إلى بخل البخلاء، ومن الأساطير التي

عرفت عند العرب ولاقت اهتماما كبيرا أسطورة العنقاء، والعنقاء طائر زعم العرب أنه كان

من سباع الطير، وأنه كان عظيم الجثة طويل العنق، وأنه كان يملك قوة خارق بحيث يستطيع

خطف فيل ضخم، وزعموا أنه خطف عروسا يوم عرسها⁽¹⁾، وقد وظف أبو نواس هذه

الأسطورة في هجاء إسماعيل بن أبي سهل في قوله:

وَمَا خُبْرُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءِ مُغْرِبٍ تُصَوِّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ

يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ سِوَى صُورَةٍ مَا إِنَّ تُمْرًا وَلَا تُحْلِي⁽²⁾

فخبزه مخفي عن الناس لا يصلون إليه كما هو طائر العنقاء.

ولم تخل أساليب الشعراء الذين تناولوا البخل من الاستعانة بآيات من القرآن الكريم،

فمنهم من أخذ نص الآية دون تغيير، أو نثرها وأخذ المعنى، ومنهم من وظف القصص القرآني

ليحقق مراده في توضيح المعنى، والتأكيد عليه، وتقريبه من النفوس، فمن الصنف الأول

الحمودي حيث زين أشعاره بآيات قرآنية، ومن ذلك قوله مقتبسا من آيات القرآن الكريم في

وصف طيلسان ابن حرب:

(1) انظر ابن منظور: لسان العرب، 271/10.

(2) أبو نواس: الديوان، ص 446.

طَيْلَسَانٌ لَابِنِ حَرْبٍ جَاءَنِي	خَلَعَةً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ⁽¹⁾
فَإِذَا مَا صِخْتُ فِيهِ صَیْحَةً	تَرَكَتُهُ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِّ ⁽²⁾
وَإِذَا مَا الرِّيحُ هَبَّتْ نَحْوَهُ	طَيَّرْتَهُ كَالْجَرَادِ الْمُنتَشِرِ ⁽³⁾
مُهْطِعُ الدَّاعِي إِلَى الرَّافِي إِذَا	مَا رَأَهُ قَالَ "ذَا شَيْءٌ نُكْرٌ" ⁽⁴⁾
وَإِذَا رَفَّأُوهُ حَاوَلَ أَنْ	يَتَلَفَّاهُ تَعَاطَى فَعَقَرَ ⁽⁵⁾

ففي هذه الأبيات يسخر الشاعر من هذا الطيلسان، وعد اليوم الذي أهدي فيه إليه يوم نحس، فهو خلق مهترئ لدرجة أنه يتمزق من الصياح والرياح، فهو كالهشيم وهنا، والجراد خفة، بحيث يشق على الرافي رفوه كأنه شيء نكر، ولا شك أن الحضور القرآني هنا أسهم في قوة الوصف، وجعله أكثر جمالا وتأثيرا.

ومن ذلك أيضا قول ابن بسام يهجو والده، متأثرا بقوله تعالى:

شِدَّتْ دَارَا خِلَتَهَا مَكْرُمَةً	سَاطَأَ اللَّهُ عَلَيَّهَا الْغَرَقَا
وَأَرَانِيكَ صَرِيْعَا وَسَطَهَا	وَأَرَانِيهَا صَاعِيْدَا زَلَقَا ⁽⁶⁾

(1) ج ه ع ع ء ئ ك ك ك ج سورة القمر (19).

(2) ج د ث ث ث د ث ف ف ج سورة القمر (31).

(3) ج أ ب ب ب ب ب ب ب ج سورة القمر (7).

(4) ج □ □ □ □ □ □ □ ج سورة القمر (6). المهطع: المقبل على الشيء ببصره فلم يرفعه عنه. لسان

لسان العرب، مادة هطع.

(5) ج ي ي ي ن ث ج سورة القمر (29). الكتبي: فوات الوفيات، 1/176.

(6) الفيرواني: زهر الآداب، 3/726.

فلفظا (صعيدا وزلقا) الواردة في دعاء الرجل المؤمن على جنتي الكافر في قوله

تعالى: جِئْكَ كَاسٌ مِّنْ سُكَّرٍ مَّزَّةٍ يَهِيمٌ كَانَتْهَا لَابْنِ بَسَامٍ فِي دَعَائِهِ عَلَى بَيْتِ
بيت والده الذي يخلو من الطعام والشراب، فكما دعا ذلك الرجل على أرض الكافر أن تصبح
مستوية ملساء جرداء دون نبات، يدعو ابن بسام أن تصبح داره مثل تلك الأرض، ولا شك أن
هذين اللفظين منح الأبيات القوة في التعبير والدلالة، وأسهما في الإفهام وتقريب المعنى.

ومن ذلك ما ضمنه جحظة في بيته الذي يهجو فيه قوما كانوا يكثر من العبادة

وقراءة القرآن ولكنهم كانوا من البخلاء:

قَدْ حَفِظُوا الْقُرْآنَ وَاسْتَعْمَلُوا مَا فِيهِ إِلَّا سُورَةَ الْمَائِدَةِ⁽²⁾

فجحظة أراد أن يسخر من هؤلاء القوم، فاستحضر في ذهنه سور القرآن الكريم،

فخطرت في باله سورة المائدة، وذكر بأنهم يتجنبون قراءتها وحفظها من بين السور لأن اسمها

يحمل دلالة غير مرغوبة عندهم، فالمائدة التي يوضع عليها الطعام لا يعرفها هؤلاء القوم عندما

يحل الضيوف عليهم، وهي صورة جمع فيها جحظة البعد الديني بالبعد الاجتماعي.

ووظفوا القصص القرآني في شعرهم، ومن ذلك قول الحمدي:

طَيْلَسَانٌ لَّابْنِ حَرْبٍ جَاءَنِي قَدْ قَضَى التَّمْرِيقُ مِنْهُ وَطَرَةَ

أَنَا مِنْ خَوْفِي عَلَيْهِ أَبَدًا "سامري" لَيْسَ يَأْلُو حَذْرَةَ

(1) سورة الكهف (40).

(2) البغدادي: البخلاء، ص 149.

وهو بذلك يشير إلى قصة السامريّ مع موسى -عليه السلام- التي وردت في سورة طه، فهو حريص على طيلسانه، خائف من أن يصيبه مكروهه، كخوف السامري من موسى عليه السلام⁽¹⁾.

-الشعر:

ومن توظيف الموروث ما ضمّنه الشعراء في شعرهم أبياتا لشعراء آخرين لخدمة المعنى، فقد ضمّن الحمدي معظم مقطوعاته التي وصف فيها الطيلسان والشاة التي أهداها له سعيد بأبيات شعريّة جاءت على لسانه، أو على لسان هذه الشاة، ومن ذلك قوله في وصف الطيلسان مضمّنا مقطوعته بيتا للشاعر القطامي:

فَقَدْ غَنَيْتُ إِذْ أَبْصَرْتُ مِنْهُ جَوَانِيَهُ عَلَى بَدَنِي تَدَاعَى
قَفِي قَبْلَ التَّفَرُّقِ يَا ضُبَاعَا وَلَا يَكُ مَوْقِفٌ مِنْكَ الْوَدَاعَا⁽²⁾

ففي هذين البيتين يسخر الشاعر من نفسه حين يرتدي هذا الثوب وقد تفرقت أجزاءه، وأوشكت على مغادرة جسمه والابتعاد عنه، فخطر على باله بيت القطامي الذي يتضمن معنى الفراق والوداع، ولا سيما أن البيت الثاني المضمن على وزن البيت الأول وقافيته، مما كان له الأثر الكبير في قوة التعبير، وجمال التصوير، وتأكيد الدلالة.

ومنه قوله مضمّنا بيتا للأعشى:

(1) الكتيبي: فوات الوفيات، 2/176.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 7/96. والبيت الثاني للشاعر القطامي، انظر القطامي، عمير: ديوان القطامي، تحقيق إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، ط1، بيروت، دار الثقافة، 1960، ص31.

لئن بليت فكَم بليت من أم
تتري أبادتهم أيامك الأول
وكم رآك أخ لي ثم أنشدني
"ودع هريرة إن الركب مرتحل"⁽¹⁾

فالشاعر في بيته الأول يخاطب طيلسانه الخلق الذي ارتداه كثيرون قبله، فأبادهم وأبلوه، بحيث أن أصحابه كانوا يعيبون عليه لبسه له لظهور علامات البلى عليه بشكل جلي، وكانوا يطلبون منه أن يفارقه ويودعه كما ودع الأعشى حبيته هريرة، فكان حضور بيت الأعشى الثاني له أثره في قوة التعبير ودلالة الفكرة.

ومنه قوله في شاة سعيد مضمنا صدر بيت للبيد:

مرت على علف فقامت لم ترم
عنه وغنت والمدامع تسجم
"وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي
متأخر عنه ولا متقدم"⁽²⁾

فعشق هذه الشاة لحبيبها وهو العلف عشق صعب المنال، وهو ما جعلها تستحضر بيت أبي الشيص وتغنيه بحزن وأسى، فالحب ساكن لا يتقدم ولا يتأخر.

وضمن جحظة من شعر لبيد بن ربيعة حيث يقول:

أصبحت بين معاشر هجروا الندى
وتقيلوا الأخلاق عن أسلافهم
قوم أحاول نيلهم فكأنما
حاولت نتف الشعر من أنافهم
هات أسقنيها بالكبير وغنني
"ذهب الذين يُعاش في أكنافهم"⁽³⁾

(1) القيرواني: زهر الآداب، 4/1117-1118. البيت الثاني للأعشى، انظر الأعشى: الديوان، ص217.

(2) الكندي: فوات الوفيات، 1/174. البيت الثاني لأبي الشيص، انظر ابن المعتز: الطبقات، ص35.

(3) البرمكي: الديوان، ص128. وعجز البيت الأخير، صدر بيت للبيد يقول فيه:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم
انظر العامري: ديوان لبيد، ص36.

فحظة يجد في بيت لبيد مراده في وصف أبناء زمانه الذين هجروا الجود، فكما شكا

لبيد أبناء زمانه شكاهم لحظة، فلم يعد هناك من يعاش في ظلهم، أو يرجى خيرهم ونوالهم.

رابعاً: الفنون البديعية

وظف الشعراء العباسيون الفنون البديعية في أشعارهم، ومن هذه الفنون:

-الجناس:

وهو أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منها صاحبتهما في تأليف حروفها⁽¹⁾، وقد

وقد استعمل الشعراء الجناس بنوعيه التام والناقص، ومن ذلك قول ابن هرمة:

أَبِالْبُخْلِ تَطَلَّبُ مَا قَدَّمَتْ عَرَانِينُ جَادَتْ بِأَمْوَالِهَا⁽²⁾
فَهَيْهَاتَ خَالَفَتْ فِعْلَ الْكِرَامِ خِلَافَ الْجِمَالِ بِأَبْوَالِهَا⁽³⁾

فقد جانس بين أموالها وأبوالها، وكذلك بين خالفت وخلاف، مما أسهم في جذب القارئ

وتشوقه لمعرفة العلاقة بين الألفاظ المتجانسة، مما يسهم في إبراز الفكرة للقارئ.

ومن ذلك قول الحمدي :

شَرُّ الْأَخْلَاءِ مَنْ وَلَّى قَفَاهُ إِذَا كَانَ الْمَوْلَى وَأَعْطَى الْبِشْرَ مَعْزُولاً⁽⁴⁾

(1) القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص393.

(2) عرانيين: السادة الشرفاء. لسان العرب، مادة عرن.

(3) الأصبهاني: الأغاني، 3/386-387. خلاف الجمال: استقازها، والخلاف هو الضرع كذلك. لسان العرب، مادة خلف.

(4) ابن قتيبة: عيون الأخبار، 3/141.

فجانس بين ولي ومولى، وهو بذلك يزيد في هجاء هذا الوالي من خلال انتقال المعنى

بين اللفظين، فهو يبخل على المحتاجين رغم أنه وال يملك المال والجاه.

ومن الجناس الجميل قول ابن بسّام في بخل أبيه :

رَأَى الْجُوعَ طَبًّا فَهُوَ يَحْمِي وَيَحْتَمِي فَلَسْتُ تَرَى فِي دَارِهِ غَيْرَ جَائِعٍ⁽¹⁾

فالجناس الناقص بين يحمي ويحتمي جاء ليدلّ على بخل أبيه الذي يحرص على صحة

من في داره من خلال الجوع والحرمان.

ويجانس أبو تمام بين عرضة وعرضه في قوله:

عُثْمَانُ لَا تَلْهَجُ بِذِكْرِ مُحَمَّدٍ يَنْهَاكَ طَوْلُ الْمَجْدِ عَنْهُ وَعَرْضُهُ
يَغْتَالُ بِذَلِكَ كُلُّهُ امْسَاكُهُ وَيَقُوتُ بِسَطِّكَ فِي الْمَكَارِمِ قَبِضُهُ
فَكَانَ عَرْضُكَ فِي السَّهْوَةِ وَجْهَهُ وَكَانَ وَجْهَكَ فِي الْحَزُونَةِ عَرْضُهُ⁽²⁾

وهو من خلال هذا الجناس يصف المهجو بقبض اليدين وإمساكهما عن الجود والعطاء،

فلا مجد له إلا بالبخل والتضييق.

ومن ملحقات الجناس قول أبي الشَّمَمَقِ :

لَوْ كَانَ فِي اسْتِكَ دِرْهَمٌ لَأَسْتَلَّهُ بِلِسَانِهِ⁽³⁾

فجانس بين استنك واستلّه مما أضفى موسيقا أسهمت في شدّ القارئ للمعنى المراد.

(1) المسعودي: مروج الذهب، 4/297.

(2) التبريزي: شرح ديوان أبي تمام، 2/348.

(3) البغدادي: البخلاء، ص97.

-الطباق:

وهو محسنٌ بديعيٌّ مهمٌّ في شعر البخل، ذلك أنّ الجمع بين الشيء وضده يسهم في
توكيد المعنى وتوضيحه ويعطيه قوة⁽¹⁾، ومن الشعراء الذين وظّفوا الطباق في شعرهم بشار في
في قوله:

فَدَّ شَبَّهَ الْمَالَ أَوْغَادًا بِرَبِّهِمْ وَأَوْضَعَ الْفَقْرُ قَوْمًا بَعْدَ تَسْوِيدِ⁽²⁾

فطابق بين (أوضع الدهر وتسويد) ليكشف نظرة الناس للمال، وتمجيدهم له، وحرصهم
عليه.

وانظر إلى جمال البديع في استخدام أبي تمام للطباق بأسلوب هزلي في قوله:

فَقَالَ لِي ذُو مِزَاحٍ يُصَايِرُ الْهَزْلَ جِدًّا⁽³⁾

فقد طابق بين (الهزل والجد) ليكشف بذلك نفسية هذا البخيل الذي لا يتحمل أن يطلب
إليه ضيفه طعاماً.

ومنه أيضاً قول الحمدي:

مَنْ لَمْ يُسَمِّنْ جَوَادًا كَانَ يَرْكَبُهُ فِي الْخَصْبِ قَامَ بِهِ فِي الْجَدْبِ مَهْزُولًا⁽⁴⁾

فالخصب والجدب ضدان، استحضرهما الشاعر ليذكر ممدوحه بضرورة أن يوجد عليه
حتى لا يقوم بواجبه نحوه.

(1) انظر القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص348.

(2) بشار: الديوان، ص431.

(3) التبريزي: شرح ديوان أبي تمام، 334/2.

(4) ابن قتيبة: عيون الأخبار، 141/3.

ومنه قول ابن الرومي يصف ضيوفا حلوا عند أحد البخلاء فمنعهم من طعامه، فكانوا

كالصائمين بمنع هذا البخيل الطعام عنهم:

فَهُمْ مُفْطَرُونَ وَلَا يُطْعَمُونَ وَهُمْ صَائِمُونَ وَهُمْ فِي أَثَامٍ⁽¹⁾

فالطباقي في (صائمون ومفطرون) أسهم بأسلوب ظريف في نعت هذا المهجو بالبخل

الشديد.

وقوله يطابق بين المدح والهجاء، والمنع والعطاء:

إِذَا مَا الْمَدْحُ سَارَ بِلا ثَوَابٍ مِنْ الْمَمْدُوحِ فَهُوَ لَهُ هِجَاءُ
لَأَنَّ النَّاسَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ أَمْنَعُ كَانَ مِنْهُ أَمْ عَطَاءُ؟⁽²⁾

-المقابلة:

ومن الفنون البديعية الأخرى التي وظفوها في أشعارهم المقابلة، وتعني أن يوتى

بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ثم ما يقابلها أو يقابلها على الترتيب⁽³⁾، وقد استخدم شعراء

شعراء هذين القرنين المقابلة بكثرة، ولعل ذلك كان لضرورة فنية وموضوعية، فالمقابلة ترسم

موقفين متناقضين، ومن الشعراء من قابل بين قدور البخلاء وقدور غيرهم، كقول أبي نواس:

رَأَيْتُ قُدُورَ النَّاسِ سِوَا مِنَ الصَّالِي وَقَدَّرَ الرِّقَاشِيِّينَ زَهْرَاءَ كَالْبَدْرِ⁽⁴⁾

(1) ابن الرومي: الديوان، 248/3.

(2) ابن الرومي: الديوان، 21/1.

(3) الفزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص353.

(4) أبو نواس: الديوان، ص277.

وهو يصف قدور الناس بالسواد؛ ليدلّل على كرمهم وكثرة طبخهم للضيّافان، بينما يصف قدور الرقاشيين بأنّها بيضاء؛ ليدلّل على بخلهم، ولا شك أنّ هذه المقابلة وما سبقها أسهمت في تأكيد الفكرة وتوضيحها، وجعلها أشدّ تأثيراً على القارئ.

ومن المقابلة قول الشاعر أبي المخنف:

مَنْعُ الرَّغِيفِ سَفَاهَةٌ تَرْكُ الرَّغِيفِ مِنْ الْهَبَاتِ⁽¹⁾

فقد قابل بين البخل في تقديم الخبز للضيوف والتصدق به، وبين تقديمه لهم هبة، وهو بذلك يحث على الجود والعطاء.

ومن المقابلات ما كانت بين الأشخاص كالمقابلة التي يجريها الشاعر أبو الشمقمق بين مالك بن علي الخزاعيّ وسعيد بن سلم الباهليّ يمدح فيها الأول ويسمه بالجود، ويذمّ الثاني ويسمه بالبخل، يقول:

قَدْ مَرَرْنَا بِمَالِكٍ فَوَجَدْنَا هُ كَرِيمًا إِلَى الْمَكَارِمِ يَنْمِي
مَا يُبَالِي أَتَاهُ ضَيْفٌ مُخَفٌّ أَمْ أَتَتْهُ يَأْجُوجُ مِنْ خَلْفِ رَدَمٍ

فهو كريم لا يهتم بكثرة الضيوف أو قلتهم، ثمّ ينتقل إلى سعيد بن سلم ويسقط عليه صفات البخل، يقول:

فانتَهينَا إلى سَعِيدِ بْنِ سَلَمٍ فَإِذَا ضَيْفُهُ مِنَ الْجُوعِ يَرْمِي
وَإِذَا خُبْزُهُ عَلَيْهِ سَيَكْفِي كَهُمْ اللهُ مَا بَدَا ضَوْءُ نَجْمٍ
وَإِذَا خَاتَمُ النَّبِيِّ سَلِيمًا نَ بَنَّ دَاوُدَ قَدْ عَلَاهُ بِخَتَمٍ

⁽¹⁾ ابن الجراح: الورقة، ص124.

فسعيد هذا من بخله يترك ضيوف جوعى، وخبزه وطعامه ممنوعان عن ضيوفه

ومختفيان كخاتم سليمان، ويختم الشاعر بمدح الأول ونمّ الثاني:

فارتحلنا من عند هذا بحمدٍ وارتحلنا من عند هذا بدم⁽¹⁾

ومن المقابلات الجميلة بين الجواد والبخيل، ما أجراه الشاعر ربعة الرقي بين يزيد بن

سليم ويزيد بن حاتم⁽²⁾، يقول:

لشّتان ما بينَ اليزيديينِ في الندى يزيدِ سُليمٍ والأغرِ ابنِ حاتمِ
يزيدُ سُليمٍ سالمُ المالِ والغنى أخو الأزديِّ للأموالِ غيرُ مُسالمِ
فَهُمُ الفتيُّ الأزديُّ إتلافُ مالِهِ وَهُمُ الفتيُّ القيسيُّ جَمْعُ الدّراهِمِ⁽³⁾

فالأول لا يمسّ أمواله بل يخزنها ويبخل بها على غيره، وهو حريص على زيادتها

والجمع منها قدر ما يستطيع، أما الثاني فهو حريص على العطاء، لا يبالي إن قلّ ماله من أجل

مساعدة غيره، وبهذه المقابلة ألصق ربعة عار البخل على يزيد بن سليم وقلّ من شأنه، ورفع

من قدر يزيد بن حاتم.

ومثل ذلك المقابلة التي عقدها ابن بسّام بين أخوين الأول عقبة، وكان من أجود الناس،

والثاني عيسى، وكان من أبخلهم، يقول:

(1) المبرد: الكامل في اللغة والأدب، 24/2.

(2) اليزيدان: وهما: يزيد بن أسيد بن زافر السلمي، ولي أرمينية زمن المنصور والمهدي، عُرف بيزيد سليم، اتهمه ربعة ربعة الرقي بالبخل توفي نحو 162هـ. ويزيد بن حاتم بن قبيصة الأزدي: كان من القادة الشجعان في العصر العباسي، ولي مصر زمن المنصور، كان جوادا ممدوحا من الشعراء، توفي سنة 170هـ. انظر الصفدي: السوافي بالوفات، 50-48/28. الخزانة الأدب ولب لسان العرب، 31-29/6. الزركلي: كتاب الأعلام، 181-179/8.

(3) الخزانة الأدب ولب لسان العرب، 31-29/6. الروضان، عبد عون: موسوعة شعراء العصر العباسي، العباسي، عمان، دار أسامة، 2001، 140/1.

لَمْ يَدْرِ مَا كَرَمَ عَيْسَى فَلَيْمَ كَمَا لَمْ يَدْرِ عُقْبَةَ مَا لُوْمٌ فَلَمْ يُلْمِ
فَزُهْدُ عُقْبَةَ فِي لَأَحِينَ نَسَأَلُهُ كَزُهْدِ عَيْسَى إِذَا مَا سَيْلَ فِي نَعَمَ (1)

ويستخدم منصور الفقيه المقابلة من أجل تحقير البخيل، لكن مقابلته ليست بين شخصين، بل بين البخيل والكلب، ويلوم من خلال أبياته الآتية على الذين يعتقدون أن البخيل مثل الكلب، فالكلب أشرف من البخيل بما يقدمه من خدمة لصاحبه، فهو يحميهم ويحفظهم من الأعداء، بينما البخيل يخيف أهله ويجوعهم، بل يخذل من ينصرهم أو يخدمهم، يقول:

جَهَلُوا الْقِيَاسَ لِلطَّفِيهِ فَتَوَهَّمُوا أَنَّ الْبَخِيلَ وَكَلْبَهُ مِثْلَانِ
وَالكَلْبُ يَحْفَظُ أَهْلَهُ وَيَقِيهِمْ وَيَكْفُ طَارِقَهُمْ عَنِ الْعُدْوَانِ
وَالنَّذْلُ يُوحِشُ أَهْلَهُ وَيُجِيعُهُمْ وَيَحْضُ نَاصِرَهُمْ عَلَى الْخُذْلَانِ
فَهَا وَمَنْ جَعَلَ الْكِلَابَ أَعَزَّةً وَالبَاخِلِينَ أذلَّةً ضِدَّانِ (2)

من هذه النماذج نلاحظ أهمية المقابلة التي أجراها الشعراء في توكيد المعنى المراد، وتحقيق الغاية المرجوة من نظم مثل هذه المقطوعات وهو القذف في المهجور البخيل، وبيان صفات النقص والبخل فيه من خلال عرض صفات الكرم والكمال في غيره، مما أسهم في تشويق القارئ، وشدته إلى الأبيات، وجعل الصورة أكثر وضوحا وبساطة وتأثيرا.

(1) البغدادي: البخلاء، ص68.

(2) القرطبي: بهجة المجالس، 1/629.

-التقسيم:

واستخدموا التقسيم في شعرهم الذي تناول البخل، وهو لون من ألوان البديع المعروفة لدى الشعراء، ويعني استقصاء الشاعر أقسام ما ابتدأ به بحيث تحتوي على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسه، فهو ذكر لمتعدد، ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين⁽¹⁾، ولجأ بعض الشعراء لفنّ التقسيم في وصف البخل والبخلاء، وإن جاء استخدامهم لهذا الفنّ قليلا وعفو الخاطر، ومن ذلك قول بشار يقسم الناس في عصره إلى صنفين:

فاكسب من المال ما تبني به شرفا أو عش برغم قصيا غير معدود⁽²⁾

فإما أن يعيش المرء يجمع من المال ليكون عزيزا شريفا، أو يبقى فقيرا منبوذا من الناس.

ومن التقسيم قول إبراهيم الموصلي يمدح رجلا:

يرضى بلونين من كسك ومن عدس وإن تشهى فباقلي بطسوج⁽³⁾

فهذا الرجل مفضل عند إبراهيم؛ لأنه يكتفي بالقليل من الطعام وبألوان محددة لا تكلفه.

ومنه قول ابن الرومي:

قل للأمير وما بالحق من بأس دغ عنك ضربك أحماسا بأسداس
من اتنتنن فلا تبخل بواحدة إمّا النوال وإمّا راحة الياس⁽⁴⁾

(1) القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص369.

(2) بشار: الديوان، ص431.

(3) البغدادي: البخلاء، ص137.

(4) ابن الرومي: الديوان، 207/2.

فهو يخير أميره بين اثنتين، إما أن يكرمه بعبائته، وإما أن يبلغه أنه لن يعطيه فيرتاح

من دوام الطلب إليه دون فائدة.

ومن التقسيم قول ابن بسّام في بخل أبيه:

بَنَى أَبُو جَعْفَرٍ دَارًا فَشَيَّدَهَا وَمِثْلُهُ لِخِيَارِ الدُّورِ بِنَاءُ
فَالجَوْعُ دَاخِلَهَا وَالذَّلُّ خَارِجَهَا وَفِي جَوَانِبِهَا بُؤْسٌ وَضَرَاءٌ⁽¹⁾

فقد بلغ الشاعر غايته حين عمد إلى التقسيم الذي رافقه الطباق في وصف هذه الدار، فداخلها الجوع، وخارجها الذلّ، وفي جوانبها البؤس والضرّاء، ولا شك أنّ التقسيم هنا أضيف ظلالة من الجمال الموسيقي، وأعطى للمعنى المراد وهو بخل والده قوّة وشدة وعمقا.

خامساً: الأوزان والموسيقى

في ظلّ الانفتاح الاجتماعي الذي عاشه العصر العباسي، أصبح هذا المجتمع الجديد يميل إلى الترف واللّهو، وانتشر فيه الغناء فانعكس هذا على الشعر والشعراء، فمال بعض شعراء هذا العصر إلى المقطوعات الشعرية ذات الأوزان الخفيفة والأعاريض القصيرة التي تتلاءم مع التغيير الاجتماعي الحاصل في هذا العصر⁽²⁾.

وعلى الرغم من سرعة التغيير الذي طرأ على المنهج والموضوع في القصيدة العربية إلا أنّ تغيير الأوزان وانتقالها من الأوزان الطويلة المعقدة إلى الأوزان الخفيفة المجزوءة كان

(1) المسعودي: مروج الذهب، 4/297.

(2) انظر ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1975، ص193.

أكثر بطئاً، وأقل انتشاراً؛ ذلك لأنّ تغيير الواقع الاجتماعي لا يعني تغيير القوالب الموسيقية دفعة واحدة، وإنما يكون بعد أن ترسخ هذه القيم في هذا المجتمع الجديد⁽¹⁾.

وبما أن الشعر الذي يتناول البخل شعر اجتماعي، فقد تأثر شعراؤه بالواقع الاجتماعي الجديد، وبما أفرزه هذا الواقع من تأثير على موسيقى هذا الشعر، لذا أخذ الشعراء في هذا العصر إحياء بعض الأوزان المهملة، مثل المجتث والمضارع والمقتضب، وكذلك مالوا إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة والإكثار منها قياساً إلى ما نظمه شعراء هذا العصر.

ونظموا على الأوزان الخفيفة، كمجزوء الرمل ذي الوزن الغنائي، ومنه قول أبي الشَّمق:

أَنَا مِنْ زُورٍ بَيْتِي وَأَنَا ضَائِفٌ لِنَفْسِي
أَشْتَرِي فِي كُلِّ يَوْمٍ حُرْمَةَ الْبَقْلِ بِفَلْسٍ
وَإِذَا مَا ذُقْتُ خَلًّا كَانَ مِنْ أَيَّامِ عُرْسِي⁽²⁾

ونظموا على مجزوء الرجز، ومنه قول دعبل يهجو بخيلاً امتنع عن وعد له بتقديم هدية

(دراعة) وعده بها؛ محتجاً أنها كانت لأبيه، يقول:

سَأَلْتُهُ دُرَاعَةً لِبَاسُهَا يَجْمُلُ بِي
فَقَالَ لِي: أَكْرَهُ أَنْ تُلْبَسَ مِنْ بَعْدِ أَبِي⁽³⁾

(1) انظر العلاق: الشعراء الكتاب في العراق في القرن الثالث الهجري، ص421-422.

(2) البغدادي: البخل، ص97.

(3) الخزاعي: ديوان دعبل، ص363.

ومن الشعراء الذين نظموا بكثرة على الأوزان الخفيفة الحمدي، ومن ذلك قوله على

مجزوء الرمل:

صَاحَ بِي ابْنُ سَعِيدٍ مِمَّنْ وَرَاءَ الْحُجُرَاتِ⁽¹⁾
قَرَّبَ النَّاسُ الْأَصْحَابِي وَأَنَا قَرَّبْتُ شَاتِي⁽²⁾

ونظم كذلك على مجزوء الرجز حين قال:

جَادَ سَعِيدٌ لِي بِشَا ةِ ذَاتِ سَقْمٍ وَدَنَفٍ
نَاحِلَةَ الْجِسْمِ إِذَا مَا هِيَ مَرَّتْ بِالْجَيْفِ⁽³⁾

ونظم الحمدي على بحر المجتث وهو بحر كان مهملًا، ومنه قوله في طيلسان ابن

حرب:

إِنَّ ابْنَ حَرْبٍ كَسَانِي ثَوْبًا يُطِيلُ أَنْحَاقَهُ
أَطَّلَ أَدْفَعُ عَنْهُ وَأَتَّقِي كُلَّ أَقَاهِ
فَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْ خَشْمِ يَتِي عَلَيْهِ الثَّقَافِ⁽⁴⁾

ونظم على مجزوء الخفيف في قوله:

طَيْلَسَانِ خَلَعْتُهُ إِذْ تَجَافَوْهُ فِي الشُّرَا

(1) من وراء الحجرات: مقتبسة من قوله تعالى: ﴿...﴾ سورة الحجرات(4).

(2) الثعالبي: ثمار القلوب، ص376.

(3) المصدر السابق، ص376.

(4) الحصري: جمع الجواهر، ص157.

كَمْ تَغْنَى عَلَيْهِ حِي — ن تَهَرَّى بَنُو الْوَرَى
حَلَّ بِي مِثْلَمَا عَلِم — ت فَجِسْمِي كَمَا تَرَى⁽¹⁾

ونظم على البحر المنسرح المهمل ومنه قوله:

قُلْ لَابْنِ حَرْبٍ مَقَالَةَ الْعَاتِبِ — وَلَسْتُ فِيمَا أَقُولُ بِالْكَاذِبِ
أَمَا رَأَيْتَ الرَّفَاءَ يُحْزِنُنِي — بِرَفْوِهِ طَيْلَسَانِكَ الذَّاهِبِ⁽²⁾

ونظم الشعراء في البخل على البحر المتقارب، وهو بحر سهل يسير، ذو نغمة واحدة

متكررة، ومنه قول ابن الرومي:

يُقَتَّرُ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ — وَلَيْسَ بِيَبَاقٍ وَلَا خَالِدِ
فَلَوْ يَسُو تَطِيْعٌ لِنَقْتِيَرِهِ — تَنَفَسَ مِنْ مَنَخَرٍ وَاجِدِ⁽³⁾

والمقام لا يتسع لعرض المقطوعات ذات الأوزان الخفيفة والمهملة التي عاد إليها

شعراء العصر العباسي جميعها، وإنما هذه نماذج تؤكد ما ذهبنا إليه.

أما من ناحية تجديد القوافي في هذا العصر، فقد مال شعراء هذا العصر إلى القوافي

الذلل والقوافي المقيدة، وجافوا القوافي الحوش والقوافي النفر؛ ولعل سبب ذلك هو مناسبة النوع

(1) ابن منقذ، أسامة: البديع في نقد الشعر، تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد، مكتبة مكتبة مصطفى الحلبي، 1960، ص253.

(2) الشريشي، أحمد: شرح مقامات الحريري، تحقيق محمد أبو إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، 1992، 319/1.

(3) ابن الرومي: الديوان، 412/1.

الأول، وهي القوافي الذلل والمقيّدة للوزن الغنائيّ الخفيف الذي يلائم شعر البخل، وعدم مناسبة النوع الثاني وهي الحوش والنّفْر له لتقلها (1).

ولو أخذنا الحمدوي نموذجاً لشعراء هذا العصر لوجدنا أنه نظم خمسا وستين قصيدة ومقطوعة في القوافي الذلل، بينما لم ينظم سوى ثلاث مقطوعات في القوافي الحوش، وست مقطوعات في القوافي النّفْر، والنسبة تقترب عند لحظة وأبي نواس وبشار وغيرهم من شعراء هذا العصر (2).

ومن المظاهر الموسيقية في الشعر الذي تناول البخل تكرار الأصوات والألفاظ، وغرض الشاعر في ذلك إيجاد نغمة موسيقية وصوتا موسيقيا يأخذ السامعين ويجذبهم للنص، بيد أن هذا التكرار يجب أن يكون متوازنا قائما على التنسيق والتنظيم، بحيث لا يتقل العبارة ويخل بالسياق، فمهارة الشاعر تكون في حسن توزيع الحروف حين تتكرر كما يوزع الموسيقي الماهر النغمات في نوتته.

ومنه قول الحمدوي في الطيلسان:

طَيْسَانٌ رَفَوْتُهُ وَرَفَوْتُ الرَّ
فَو مِنْهُ وَقَد رَفَوْتُ رِقَاعَهُ (3)

(1) القوافي الذلل: هي الباء والتاء والثاء والذال والراء والعين والميم والياء المتبوعة بألف الإطلاق والنون غير المجددة، المجددة، والميم واللام أحلى القوافي الذلل.

القوافي المقيّدة: وهو ما يكون حرف الروي فيها ساكنا وفيه عسر في البحور الطول وخفة في بحري البحر والمتقارب. القوافي الحوش: هي الفاء والخاء والذال والشين والطاء والغين.

القوافي النّفْر: هي الصاد والزاي والضاد والطاء والهاء الأصلية والواو.

(2) انظر العلاق: الشعراء الكتاب في القرن الثالث الهجري، ص 427.

(3) الفيرواني: زهر الآداب، 4/1119.

فقد كرر الفاء خمس مرات، وكأنه يستعين بها للمغالاة في نعت هذا الطيلسان البالي،

وقد اتسم هذا التكرار بحسن الرصف مع الحفاظ على الموسيقى⁽¹⁾.

ومن تكرار الحروف تكرار ابن الرومي لصوت السين في قوله:

وَمَا أُنْسُ ذِي أُنْسٍ لِعَيْسَى بِمُؤْنِسٍ وَلَا وَقَعُ أَضْرَاسِ الْأَكِيلِ بِمُطْرِبِ⁽²⁾

فقد كرر الشاعر حرف السين بصوته المهموس ونغمته الموسيقية وقد سبقه حرفا النفي

ما ولا، وكأنه يريد أن يقول إن الأنس والطرب قد فقدوا عندما يتناول الضيف طعام عيسى.

ومن صور تكرار الألفاظ تكرار العطوي لكلمتي (موت و كرم) في بيته:

وَمُتْ عَلَى الذَّرْهِمِ الْمَنْفُوشِ مَوْتًا فَتَى رَأَى الْمَمَاتَ عَلَيْهِ أَكْرَمَ الْكَرَمِ⁽³⁾

فقد أسهم تكرار هذه الألفاظ في توكيد أهمية الحرص على الدرهم بحيث يستحق أن

يموت الإنسان من أجله، كما أن هذا التكرار الذي جاء عفو خاطر زاد من جمال الجرس

الموسيقي، ومنه تكرار الحمدوي للتركيب (ابن حرب) كما مر في مقطوعاته السابقة.

ومن ترداد الألفاظ قول جحظة:

فَمَتَى أَكَلْتُ قَتَاتَهُ مِنْ بُخْلِهِ وَمَتَى قَتَلْتُ قَتْلَتُ بِالْمَقْتُولِ⁽⁴⁾

(1) انظر إبراهيم: الشعر الهزلي العباسي، ص 227.

(2) ابن الرومي: الديوان، ج 1/96.

(3) القرطبي: بهجة المجالس، ج 1/204.

(4) البرمكي: الديوان، ص 158.

فقد كرر كلمة قتل ومشتقاتها أربع مرات ليؤكد الأثر النفسي الذي يشعر به هذا البخيل عندما يتناول جحظة من طعامه، فهو كالمقتول، ولا بدّ من القصاص بقتل جحظة؛ لأنه سبب قتل مضيفه، لذا فكلمة قتل أدت دوراً فنياً ومعنوياً كبيراً.

وقد جمع جحظة التكرار في الحروف والألفاظ في قوله:

فَأَهْوَتْ يَمِينِي نَحْوَ رِجْلِ نَجَاجَةٍ فَجَرَّتْ كَمَا جَرَّتْ يَدِي رِجْلَهَا رِجْلِي⁽¹⁾

فقد كرر حرف الراء خمس مرات، وكر كلمة رجل ثلاث مرات، وكلمة جرت مرتين، وهو ما جعل في البيت شيئاً من التعقيد والصعوبة، ومرد هذا التعقيد النقل في لفظ عجز البيت.

ولجأ بعض الشعراء لتكرار العبارات في شعرهم، ومن ذلك قول الحمودي يكرر عبارة

(طيلسان لابن حرب):

طَيْلَسَانُ لَابْنِ حَرْبٍ يَتَدَاعَى لَا مَسَاسًا⁽²⁾

وقوله:

طَيْلَسَانُ لَابْنِ حَرْبٍ ذُو أَيَادٍ لَيْسَ تُحْصَى⁽³⁾

ومن المظاهر الموسيقية التي زينت الشعر الذي تناول البخل التصريع، وهو جعل

العروض مقفاة تقفية الضرب⁽⁴⁾، ولعل السبب في استخدام الشعراء التصريع ما يضيفه هذا

(1) البرمكي: الديوان، ص157.

(2) الفيرواني: زهر الآداب، 1119/4.

(3) الحصري: جمع الجواهر، ص153.

(4) القزويني، جلال الدين: الإيضاح في علوم البلاغة، بيروت، دار الكتب العلمية، 1975، ص406.

النمط من قوة وتأثير شديدين، تهتز له النفس وتطرب له الأذن، لوجود هذه الأنغام الموسيقية الخفيفة والعبارات الموجزة، ومن التصريح قول بشار:

ظَلُّ الْيَسَارِ عَلَى الْعَبَّاسِ مَمْدُودٌ وَقَلْبُهُ أَبَدًا بِالْبُخْلِ مَعْقُودٌ⁽¹⁾

فقد لاعم بين العروض والضرب (ممدود ومعقود)، مما أضفى نغمة موسيقية زادت من قوة البيت وسحره.

ومنه قول الحمدي:

بِشَاةٍ سَعِيدٍ وَهِيَ رُوحٌ بِلَا جِسْمٍ تَمَثَّلَتْ الْأَمْثَالُ فِي شِدَّةِ السُّقْمِ⁽²⁾

فالتصريح الحاصل بين جسم وسقم، يشد القارئ بموسيقاه العذبة، فخير الكلام ما كان أوله يدل على آخره.

ومنه قول جحظة:

قُلْ لِقَوْمٍ مَا فِيهِمْ مَنْ رَشِيدٌ لَا وَلَا فَوْقَ بُخْلِهِمْ مَنْ مَزِيدٌ⁽³⁾

وقد وقع التصريح بين كلمتي رشيد ومزيد.

ومن المظاهر الموسيقية الأخرى في شعر البخل "لزوم ما لا يلزم"، وغرضه الأساسي

هو التنعيم والتطريب وإحداث النشوة في النفس بسبب التناغم بين نهايات الأبيات، وهو صعب

(1) بشار: الديوان، ص 415-416.

(2) النعالي: ثمار القلوب، ص 376-377.

(3) البرمكي: الديوان، ص 79.

على الشاعر غير المتمكن، وقد توقع بعض الشعراء بالتكلف⁽¹⁾، ومن النماذج الشعرية عليه قول
قول الحمدي:

طَيْسَانُ مَا زَالَ أَقْدَمَ فِي الدَّهْرِ — رَمِنَ الدَّهْرِ مَا لِرَأْفِيهِ حَيْلُهُ
وَتَرَى ضَعْفَهُ كَضَعْفِ عَجُوزٍ — رَثَّةَ الْحَالِ ذَاتِ فَقْرٍ مُعِيلُهُ
غَمْرَتُهُ الرَّقَاعُ فَهُوَ كَمِصْرٍ — سَاكِنَتُهُ نُزَاعُ كُلِّ قَبِيلَةٍ⁽²⁾

فألفاظ القافية (حيلة، ومعيلة، وقبيلة) التزم فيها الشاعر الروي وهو اللام، والتزم حرفا
آخر قبله وهو الياء من قبيل لزوم ما لا يلزم، وقد أكسب التزام الشاعر لهذا الصوت الذي
يكرره في آخر كل بيت التنغيم والتطريب، وأسبع على النص الشعري جمالا ومتعة بسبب هذا
التشابه في حروف القافية.

ومنه قول جحظة:

أَنَا فِي قَوْمٍ أَعَاشِرُهُمْ — مَا لَهُمْ فِي الْخَيْرِ عَائِدَهُ
جَعَلُوا أَكْلِي لِحُبِّزِهِمْ — عَوْضًا مِنْ كُلِّ فَائِدِهِ⁽³⁾

فقد التزم الشاعر الروي وهو الدال، والتزم قبله حرفي الهمزة والألف، مما أضفى على
الآبيات جرسا موسيقيا عذبا ناتجا عن تشابه آخر أصوات القافية.

(1) انظر إبراهيم: الشعر الهزلي العباسي، ص 229.

(2) القيرواني: زهر الآداب، 4/1118-1119.

(3) البرمكي: الديوان، ص 71.

سادساً: الصورة الشعرية

وتشمل التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها، والواقع أنّ الشعراء في هذين القرنين احتقوا بهذه الفنون احتفاء كبيراً، بل وزاد اهتمامهم بها عن غيرها من الفنون، ولعلّ التّغير الحضاريّ كان من الأسباب الرئيسيّة في توهّج هذه الفنون وكثرتها في شعر شعراء العصر العبّاسيّ، ولذلك يلمس القارئ ارتقاء في التّصوير والتّمثيل والخيال، وتطوّراً في الأحاسيس والأذواق، وبدأ المرء يرى أنماطاً جديدة من التّرف واهتماماً زائداً بالطّعام وأنواعه، لذا لا عجب من أن تتلاشى أو تكاد الصّور الحسيّة المكررة وترتقي الصّور الشعريّة الذّهنيّة المعنويّة، ومن ألوان هذه الصّنعّة التشبيه والاستعارة والكناية.

-التشبيه:

وهو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى، ولشرف قدره وفخامة أمره في فنّ البلاغة فإنّ تعقيب المعاني به يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحا كانت، أو ذمّا، أو افتخاراً، أو غير ذلك⁽¹⁾.

ولا شك أنّ طبيعة البيئة العبّاسيّة الجديدة ساعدت شعراء هذا العصر بشكل عام، وشعراء القرنين الثّاني والثّالث الذين كانوا شهوداً على ظاهرة البخل في هذه الفترة بشكل خاصّ، وأمّدتهم بصنوف وأشكال من التشبيه، وكان التشبيه من أهمّ أدوات هذا الشّاعر في رسم الصّورة المعنويّة، ومن الشعراء الذين أجادوا في هذا الجانب بشّار حيث جاءت صورته الشعريّة وتشبيهاً غاية في الرّوعة رغم كونه ضريراً، فكأنّه فنّان يرسم لوحة يزيّنها بألوانه السّاحرة،

⁽¹⁾ انظر القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص217-218.

ومن تشبيهاته تلك اللوحة التي رسمها لنفسه حين شبّه نفسه بالريحانة التي تحتاج لريّ وعناية، حتى تتمكن من العطاء، رافضا تشبيهه يعقوب بن داود له بالكمّونة التي كان يتردد بين الناس في زمانهم أنه يعطي وينبت على الأمانى والوعود التي يمنيها ويعدّها زارعوه له، وينفي عن نفسه هذه السّمة، ويرمز بذلك إلى وعود يعقوب له بالعطايا ومماطلته في تحقيق هذه الوعود، فهو ريحانة لا كمّونة، يقول:

يَعْقُوبُ قَدْ وَرَدَ الْعُفَاةَ عَشِيَّةً مُعَرِّضِينَ لِسَيِّبِكَ الْمُنتَابِ (1)
 فَسَقَيْتَهُمْ وَحَسَبْتَنِي كَمَوْنَةً نَبَتَتْ لِزَارِعِهَا بَغَيْرِ شَرَابِ
 مَهْ لَا أَبَا لَكَ إِنِّي رِيحَانَةٌ فَاشْمُمُ بِأَنْفِكَ وَأَسْقِهَا بِذِنَابِ (2)

ومن الشعراء من رسم صورة ساخرة للبخلاء، فهذا بشار يعرّض بآل سليمان من خلال رسم صورة هزليّة تعبّر عن بخلهم الشّديد وحرصهم على أموالهم، فمن يطلب عطاءهم كمن يطلب الخبز من فمّ الحوت أو الكلب، وقد أحسن بشار باختياره لهذين الحيوانين اللّذين يمتازان بحرصهما الشّديد على طعامهما، بحيث من الصّعوبة أن ينتزع منهما، فالصّورة متشابهة بينهما وبين آل سليمان، بل إنّ آل سليمان أشدّ حرصا من الكلاب والحيّتان على دينارهم ودرهمهم، فهما كالمكّين هاروت وماروت، يحيط بهما العفاريّت فلا يستطيع أحد أن يصل إليهما، ودينارهم ودرهمهم لا يمكن أن يحصل عليهما أحد، فهما أيضا كهاروت وماروت، تسمع بهما ولكن لا أثر لهما في الوجود، يقول بشار:

(1) السيب: العطاء. لسان العرب، مادة سيب.

(2) بشار: الديوان، ص56.

يا أيها الراكب الغادي لطيبته
لا تطلب الخبز بين الكلب والحوت
دينار آل سليمان ودرهمهم
كالبابليين حقا بالعقاريات
لا يوجدان ولا يرجى نوالهما
كما سمعت بهاروت وماروت⁽¹⁾

ومن التشبيهات الجميلة تشبيه ابن هرمة لبخيل ذهب يطلب حاجته منه، يقول:

نكس لَمَّا أَتَيْتُ سَائِلُهُ
واعْتَلَّ تَتَكَيَسَ نَاضِمَ الْخَرَزِ⁽²⁾

فهو يشبه صورته عندما ذهب يستمنحه شيئا ما فخفض رأسه خفضا متواصلا، بصورة

ناظم الخرز الذي يبقى خافضا رأسه في عمله، وهي صورة تعبر عن شح هذا البخيل.

وشبه أبو نواس قدور الرقاشيين بأُم العيال، يقول واصفا هذه القدور:

وَدَهْمَاءُ تُتْقِيهَا رِقَاشٌ إِذَا شِئَتْ
مُرْكَبَةٌ الْأَذَانِ أُمَّ عِيَالِ⁽³⁾
يَعَصُّ بِحَيْرُومِ الْبَعُوضَةِ صَدْرُهَا
وَتُنْزِلُهَا عَفَّوَا بَغْيَرِ جِعَالِ⁽⁴⁾

ويصورها في البيت الثاني كصدر البعوضة صغرا، فهي تنزل دون كسر.

ومن جميل التشبيه المركب قول أبي نواس يشبه بخيله الذي غذاه برائحة الطعام دون

الطعام، بشخص يسقي الظمان سرايا لا ماء، وشبه نفسه بشخص تغذى في المنام لا حقيقة،

وهي صورة إبداعية لأبي نواس كان له السبق فيها، يقول:

(1) بشار: الديوان، ص224.

(2) عطوان، حسين: الشعراء من مخزومي الدولتين الأموية والعباسية، بيروت، دار الجيل، 1974، ص347.

(3) تنقيها: تضعها على الأثافي، وهي الحجارة توضع عليها القدور. لسان العرب، مادة أنف.

(4) الجاحظ: البخلاء، ص332. الحيزوم: وسط الصدر. لسان العرب، مادة حزم. الجعال: الكسر. لسان العرب، مادة جعل.

أَبُو نُوحٍ دَخَلَتْ عَلَيْهِ يَوْمًا فَنَادَانِي بِرَائِحَةِ الطَّعَامِ
فَكَانَ كَمَنْ سَقَى الظَّمَانَ آلا وَكُنْتُ كَمَنْ تَغَذَى فِي الْمَنَامِ⁽¹⁾

ونلمس في بعض التشبيهات تفحّشا في الصّورة واللفظ، كما في قول أبي الشّمقمق يهجو

بخيلا اسمه حارثة، حيث يشبهه إعراضه عنه بإعراض القحبة، يقول:

جِئْتُهُ زَائِرًا فَأَعْرَضَ عَنِّي مِثْلَ إِعْرَاضِ قَحْبَةٍ سَوْسِيَّةٍ⁽²⁾

ويشبهه دعبل عطاء البخيل بالغيث الذي لا يمطر، يقول:

مَا كُنْتُ إِلَّا كَغَيْثٍ خَابَ أَمْلُهُ وَجَادَ يَوْمًا عَلَى قَوْمٍ بِلا أَمَلٍ⁽³⁾

وأبداع شعراء العصر العباسي في وصف المظاهر والأساليب التي اتبعتها البخلاء، فكان

شعرهم لوحات فنيّة معبرة، واستطاعوا التّجديد في هذا الجانب، وأضافوا على الشّعر جمالا

ورونقا كانوا السّباقين فيه، ومن ذلك وصف دعبل لحرص بخيل على طعامه، مبيّنا استحالة

الوصول إليه بسبب الحراس الذين يمنعون الوصول إليه، يقول:

وَإِنَّ لَهُ لَطَبَاخًا وَخُبْزًا وَأَنْوَاعَ الْفَوَاكِهِ وَالشَّرَابِ

وَلَتَكُنْ دُونَهُ حَبْسٌ وَضَرْبٌ وَأَبْوَابٌ تَطَابِقُ دُونَ بَابِ

يَدُودُونَ الذُّبَابَ يَمُرُّ عَنْهُ كَأَمْثَالِ الْمَلَائِكَةِ الْغُضَابِ⁽⁴⁾

فحراسه كالملائكة الغضاب إن اقترب من مطبخه إنسان أو حيوان.

(1) الفرطبي: بهجة المجالس، 636/1.

(2) الجاحظ، عمرو بن بحر: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، 1996، 263/1.

(3) الخزاعي، دعبل: الديوان، ص228.

(4) المصدر السابق، ص364.

واستخدم دعبل التشبيه التمثيلي لإظهار بخل البخلاء، ومن ذلك قوله:

ما كُنْتُ إِذْ طَلَبْتُ يَدَايَ بِكَ الْغِنَى إِلا كَطَالِبِ خُطْبَةٍ مِنْ أُخْرَسِ
وَالْمَجْدُ يُفْسِدُهُ اللَّئِيمُ بِلُؤْمِهِ كَالْمَسْكَ يَفْسُدُ رِيحُهُ بِالْكَنْدُسِ⁽¹⁾
يَا رَبِّ إِنِّ غَنَى اللَّئِيمِ يَسْوُونِي فَاصْرِفْ غِنَاهُ إِلَى الْجَوَادِ الْمُفْلِسِ⁽²⁾

فدعبل عندما يطلب مالا من هذا الشخص كمن يطلب إلى أخرس أن يلقي خطبة، وكيف له ذلك وهو لا يستطيع الكلام؟! وفي البيت الثاني يصور البخل وقد أفسد المجد والشرف، بنبات الكندس ذي الرائحة الكريهة الذي يفسد رائحة المسك الطيبة عندما يختلط به.

ويعدّ شعر الحمدي في طيلسان ابن حرب وشاة سعيد وما ضمنه من تشبيهات لهما صورة واقعية للتغير والتجديد في هذين القرنين، ومن ذلك قول الحمدي:

وطيلسان كالآل يلبسه على قميص كأنه غيم⁽³⁾

فهذا الطيلسان مجرد سراب، يخيل لصاحبه أنه يلبس ثوبا فوق قميصه، وقد أكد من خلال هذا التشبيه بخل مهديه له.

ويشبهه بالكلب الذي يلهث دائما من التعب، فهو -الطيلسان- مهترئ في كل أوقاته،

يقول:

كَالْكَلْبِ إِذَا تَحَمَّلَ عَلَيَّ هِ الدَّهْرَ أَوْ تَتْرَكَهُ يَلْهَثُ⁽⁴⁾

(1) الكندس: عروق نبات مسهل مقيئ معطس. لسان العرب، مادة كندس.

(2) الخزاعي، دعبل: الديوان، ص170.

(3) الثعالبي: ثمار القلوب، ص602.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 97/7.

وشبَّهه الصَّوْرَةُ الَّتِي رَسَمَهَا ابْنُ الرَّومِيِّ لِأَبِي الْقَاسِمِ التَّوْزِيِّ وَهُوَ يِعَاتِبُهُ عَلَى مَنَعِهِ

العطايا عنه وبخله عليه، يقول:

فَعَدَا كَالْخِلَافِ يَرُوقُ لِلْعَيْ—
—نِ وَيَأْبَى الْإِثْمَارَ كُلَّ الْإِبَاءِ⁽¹⁾

فهو يشبهه بشجر الصَّقْصَافِ الَّذِي يَمْتَنَزُ بِجَمَالِهِ وَرَوْنَقِهِ، وَلَكِنَّهُ مَعَ جَمَالِهِ شَجَرٌ غَيْرُ

مِثْمَرٍ.

وقد صَوَّرَ الشَّعْرَاءُ الْبِخْلَاءَ، وَرَسَمُوا لَهُمْ صُورًا قَبِيحَةً، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ مَنْصُورِ الْفَقِيهِ:

مَا بِالْبِخِيلِ انْتِفَاعُ
وَالْكَأَلِيبُ يَنْفَعُ أَهْلَهُ
فَنَزَّهُ الْكَأَلِيبَ عَنَّا أَنْ
تَرَى أَخَا الْبُخْلِ مِثْلَهُ⁽²⁾

فهو يشبه البخيل بالكلب، ثم يعود ليميز بينهما، فيفضل الكلب على البخيل لأن الكلب

ينتفع منه الناس، أما البخيل فلا نفع منه.

وَصَوَّرَ جِحْظَةَ الطَّعَامِ الَّذِي فِي قَدْرِ أَحَدِ أَصْحَابِهِ قَائِلًا:

قَدَّمَ لِي أَعْظَمَ حَوْلِيَّةٍ
قَدْ طُبِخَتْ بِالْمَاءِ فِي بُرْمَتِهِ
فَلَمْ أَزَلْ، زَلَّتْ بِهِ نَعْلُهُ،
أَلْعَبْتُ بِالشُّطْرُنْجِ فِي قَصْعَتِهِ⁽³⁾

فهذا الطعام الذي في القدر كحجارة الشطرنج اليابسة، أي لا لحم عليها، وهو بذلك

يرمز إلى بخل أصحاب هذا الطعام.

(1) ابن الرومي: الديوان، 1/23-29.

(2) القحطاني: منصور الفقيه حياته وشعره، ص128.

(3) البرمكي: الديوان، ص55.

ولا شك أنّ لهذه التشبيهات الأثر الكبير في إضفاء الجماليّة على شعر شعراء هذين القرنين، وكان لها نصيب كبير في شدّة التأثير والتشويق على القارئ، وأسهمت في تقذيع البخل والبخلاء، ونفور النَّفس من هذه الفئة.

-الاستعارة:

وهي ما كانت علاقته تشبّيه معناه بما وضع له⁽¹⁾، وتعدّ الاستعارة من المحسّنات المعنويّة الجميلة رغم كونها أصعب من التشبيه، فهي أكثر قدرة على الشّاعريّة، وقد كانت الاستعارة المكنيّة أكثر ما استخدمه الشعراء الذين تعرّضوا للبخل، وذلك بما تملكه هذه من قدرة على تجسيم المعاني وتشخيصها، وما تضيفه من أفعال ولوازم إنسانية، ومن ذلك قول الشاعر الجنيّ جاعلاً البخل واللؤم إنساناً يقيم في بيت الشّاعر مروان ويستقر فيه، بل وينطق سعيداً بهذا المقام، وهو بذلك يعرّض ببخله الدائم الذي لا يزول:

غَدَا اللُّؤْمُ يَبْغِي مَطْرَحاً لِرِحَالِهِ فَنَقَّبَ فِي بَرِّ البِلَادِ وَفِي البَحْرِ
فَلَمَّا أَتَى مَرَوَانَ خَيَّمَ عِنْدَهُ وَقَالَ رَضِينَا بِالمَقَامِ وَبِالحَشْرِ⁽²⁾

ويشبهه مخد الموصلي⁽³⁾ البخل إنساناً له يد تمنع هذا البخيل من العطاء، والسّماحة

شخصاً له كف، يقول:

(1) القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص285.

(2) الأصبهاني: الأغاني، 99/10.

(3) مخد بن بكر الموصلي الشاعر، عاصر المتنبّي وله فيه هجاء. انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان 2، ص25.

الصفدي: الوافي بالوفيات، 219/25.

فَتَى لَا يَغَارُ عَلَى عَرْسِهِ وَلَكِنْ يَغَارُ عَلَى خُبْرِهِ
يَدُ الْبُخْلِ قَدْ شَبَّكَتْ كَفَّهُ وَكَفُّ السَّمَاةِ فِي عَجْزِهِ⁽¹⁾

ويجمع أبو نواس في مقطوعته الآتية في وصف قدور المعبديين وخيزهم بين الكناية والاستعارة، فقدورهم ملاذ للعنكبوت، تحتمي فيها من شدة الحر، كناية عن قلة استخدامها، وهو بذلك يشير إلى حرصهم وتجعد يدهم، ويشخص رغفانهم إنسانا سعيدا؛ لأنها أمنت على نفسها من أن يأكلها أحد، يقول متهكما:

وَجَدْتُ لِكُلِّ النَّاسِ فِي الْجُودِ خِطَّةً وَلَوْ كَانَ سَقَى الْمَاءِ فِي مُنْتَهَى الْقُرِّ
سِوَى الْمَعْبُدِيِّينَ الَّذِينَ قُدُورُهُمْ تَحَرَّرَ فِيهَا الْعَنْكَبُوتُ مِنَ الْحَرِّ
هُمْ أَحْرَزُوا الرُّغْفَانَ حَتَّى تَكَلَّمَتْ: أَمِنَّا بِحَوْلِ اللَّهِ مِنْ حَذْرِ الْكَسْرِ⁽²⁾

واستخدم الشافعي الاستعارة المكنية في التعريض بالبخل وأهله في قوله:

وَأَنْطَقَتِ الدَّرَاهِمُ بَعْدَ صَمْتِ أَنْاسًا بَعْدَمَا كَانُوا سُكُوتًا⁽³⁾

فقد تحولت الدراهم إلى طبيب ينطق الصمّ، مشيرا بذلك لشغف هؤلاء الفئة من الناس

بالدّرههم والدينار وحرصهم عليها.

ومن الشعراء الذين أكثروا من استخدام الاستعارة الحمدي في وصف طيلسان ابن

حرب وشاة سعيد، ومنه قوله في الطيلسان:

(1) البغدادي: البخلاء، ص81.

(2) أبو نواس: الديوان، ص278-279. الحرز: المبالغة في صيانتها والحرص عليها. لسان العرب، مادة حرز.

(3) الشافعي، الديوان، ص30.

يا ابنَ حَرْبٍ كَسَوْتَنِي طَيْلَسَانَا مَلَّ مِنْ صُحْبَةِ الزَّمَانِ وَصَدَا⁽¹⁾

ففي الشطر الثاني (ملَّ من صحبة الزمان وصدًا) استعارة مكنية، فقد استخدم الشاعر لفظة (ملَّ) مشبها إياه بإنسان، ذلك أنَّ الملل من صفات البشر وليست من صفات الملابس، وهو بذلك يجعل للطيلسان علاقة بالزمن كعلاقة الإنسان بالإنسان، مما زاد من جمال الصورة وتأثيرها.

ومنه قوله أيضا في وصف الطيلسان ومضفيا عليه صفات البشر وما يصيبهم من مرض ووجع وسقم، يقول:

يا ابنَ حَرْبٍ كَسَوْتَنِي طَيْلَسَانَا أَمْرَضْتَهُ الْأَوْجَاعَ فَهُوَ سَقِيمٌ
فَإِذَا مَا رَفَوْتُهُ قَالَ سُبْحَا نَاكَ مُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ⁽²⁾

ولجأ الحمدوي في جلِّ مقطوعاته التي وصف فيها شاة سعيد إلى الاستعارة المكنية، وذلك حين جعل هذه الشاة إنسانا يغني ويعبر عن شكواه خاصة عندما ترى العلف الذي حرمت منه عند سعيد البخيل، كما في قوله:

وَكَمْ قَدْ تَغَنَّتْ إِذَا تَطَاوَلَ جَوْعُهَا وَلَمْ تَرَ عِنْدَ الْقَوْمِ شَيْئًا مِنَ الطُّعْمِ
أَلَا أَيُّهَا الْغَضْبَانُ بِاللَّهِ مَا جَرَى إِلَيْكَ فَقَدْ أَبْلَيْتَ جِلْدِي عَلَى عَظْمِي⁽³⁾

(1) الكتي: فوات الوفيات، 1/173.

(2) المصدر السابق، 1/175.

(3) الثعالبي: ثمار القلوب، ص 377.

- الكناية:

وهي أن تكني عن الشيء وتعرض به ولا تصرّح⁽¹⁾، ولقد كان لها نصيب كبير من عناية الشعراء في هذين القرنين، وربما يعود ذلك لتطور الحياة الاجتماعية الحضارية الجديدة في العصر العباسي، من خلال بروز طرائق جديدة في التعامل والمجاملة اللطيفة بين الناس، واللجوء إلى صياغات في القول تتم عن رقة في الطبع وتهذيب في الذوق، ومن هنا كانت الكناية وسيلتهم في التعبير حين يكون الموضوع ممّا لا يمكن التصريح فيه، أو حين يريدون إيلاء المهجوة خاصة في موضوع البخل، ذلك أنّ الكناية فيها من القسوة ما يفوق التصريح، إضافة لما تضيفه الكناية من جمال فني.

وقد استمدّ شعراء البخل كنياتهم من بيئاتهم اللاتي يعيشون فيها، ومن أفواه الناس، فكانت مدعاة للتعبير عن سخطهم بأسلوب غير مباشر، ومن ذلك قول بشار يكني عن بخل وزير المهديّ يعقوب:

قَدْ صَارَ مِنْ بَعْدِ إِشْرَاقِ عَلِيٍّ تَلْفٍ وَبَعْدَ غُلِّ عَلِيٍّ الزُّنْدَيْنِ مَشْدُودِ⁽²⁾

فالزندان المشدودان كناية عن حرصه ومنعه العطاء عن الناس.

ويكني أبو الشمقمق عن بخل رجل بقوله:

يَبْسُ الْيَدَيْنِ فَمَا يَسْطِيعُ بَسْطَهُمَا كَأَنَّ كَفَيْهِ شُدًّا بِالْمَسَامِيرِ⁽³⁾

(1) العسكري، الحسن: الصناعتين، تحقيق علي الجاوي ومحمد إبراهيم، ط2، القاهرة، مكتبة عيسى الباب الحلبى، 1971، ص91.

(2) بشار: الديوان، ص395.

(3) البغدادي: البخلاء، ص96.

فتجعدّ اليدين وييسهما كأنهما شدّتا بالمسامير كناية عن الشح.

ويكنّي العطوي عن بخل مهجوه بأسلوب آخر، وذلك حين يلجأ إلى وصف ملابسه وجسمه المتسخة، يقول:

وَسِيخُ الثَّوْبِ وَالْقَلَانِسِ وَالْبِرِّ ذَوْنُ وَالْوَجْهِ وَالْقَفَا وَالْغُلَامِ⁽¹⁾

وكلّ هذه الألفاظ التي دلّت على البخل، كانت ابنة البيئّة العباسيّة التي وفد بعض ألفاظها من أمم مجاورة.

وقد استخدم الحمدوي الكناية في وصف طيلسان ابن حرب وشاة سعيد ليعبر عن بخل هذين الشخصين، ومن ذلك قول الحمدوي في الطيلسان:

كَانَ دَهْرًا طَيْلَسَانَا ثُمَّ قَدْ أَصْبَحَ شِصًّا⁽²⁾

فالكناية في (أصبح شصًا) دلّلت على الحال الذي وصله هذا الطيلسان فبعد أن كان باليا أصبح هذا الطيلسان شصًا، والشاعر بهذا الربط بين الطيلسان والشص يريد أن يؤكد على صفة البخل لدى المهديّ ابن حرب.

ومن الكناية قوله في وصفه لشاة سعيد:

وَكَيْفَ تَبْعَرُ شَاةً عِنْدَكُمْ مَكَتَتْ طَعَامُهَا الْأَبْيَضَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ⁽³⁾

(1) العكبري، أبو البقاء: التبيان في شرح الديوان، ضبط وتصحيح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شلبي، الطبعة الأخيرة، بيروت، دار الفكر، 1979، 370/2.

(2) الحصري: جمع الجواهر، ص153. الشص: حديدة عقفاء يصاد بها السمك وهي معربة. لسان العرب، مادة شصص.

(3) المصدر السابق، ص355.

فالكناية في عجز البيت، إذ لا يعقل أن تأكل الشاة من الشمس والقمر، لكن الشاعر قصد من هذه الكناية أن يصف ضعف هذه الشاة وهزالها؛ بسبب امتناع سعيد من إطعامها من الطعام الطيب كالغلف، ليصل إلى مبتغاه وهو هجاء سعيد البخيل.

ومن الكنايات الجميلة قول ابن الرومي يكني ببخل أحد الأشخاص:

الحَابِسِ الرُّوثَ فِي أَعْفَاجِ بَغْلَتِهِ خَوْفًا عَلَى الْحَبِّ مِنْ لَقْطِ الْعَصَافِيرِ⁽¹⁾

فمنع البغلة من إنزال روثها منها خوفا من أن تلتقطه العصافير كناية عن بخل ما بعده بخل، ومبالغة في إيلاء المهجو وتقذيعه.

ومن الكناية قول جحظة:

تَغَيَّرَ لِي عَنْ جَمِيعِ الْوُدَادِ فَصَارَ جَرِيرًا وَصِرْتُ الْفَرَزْدَقُ⁽²⁾

فالشاعر بقوله: (فصار جريرا وصرت الفرزدق) يكني عن العداوة بينه وبين مضيفه، فبعد أن كسر جحظة من رغيته كسرة ليأكل، استحضر ما كان يجري بين الفرزدق وجريير من مناقضات وخصومات؛ ليصف تغير أحوال مضيفه البخيل عندما أخذ يتناول من طعامه، فقد تحول الود والحب الذي كان قبل الطعام، إلى بغض وحقد.

ولجوء الشعراء إلى هذه الكنايات وغيرها مما زخر به شعر البخل أضفى على شعرهم السهولة والوضوح، وهو ما أدى إلى اقتراب هذا النوع من الشعر من لغة الحياة اليومية، وهذه

(1) البغدادي: البخلاء، ص 96.

(2) البرمكي: الديوان، ص 131.

من الدلالات الاجتماعية التي حقّقها شعر البخل في العصر العباسي⁽¹⁾.

إنّ استخدام الشعراء العباسيين في هذين القرنين للصنعة البيانية والمعنوية كان كثيرًا، ويمكن القول إنّ الشعراء في هذين القرنين كانوا أصحاب صنعة شعريّة، وإن كانت هذه الصنعة في هذا الموضوع جافت التعقيد، ومالت إلى الوضوح والبساطة، وكرهت الألفاظ الغريبة.

(1) انظر لإبراهيم: الشعر الهزلي العباسي، ص 253.

الخاتمة

شكل البخل وصوره محور هذا البحث، فقد استعرضت الدراسة نماذج شعرية في القرنين الثاني والثالث الهجريين تظهر مدى شيوع هذى الخلق آنذاك، وتوضح الصور والأبعاد التي رافقت البخل والبلاء، وحاولت البحث في خصائص هذا الشعر الفنية.

وبتوفيق من الله وفضله، فقد توصلت في هذا البحث إلى نتائج كثيرة يمكن إجمال أهمها

في الآتي:

- كشفت الدراسة أن التغير الحضاري والاجتماعي والاقتصادي الذي شهده العصر العباسي كان له أثر كبير في انتشار البخل والشعر الذي تناوله، فإضافة إلى العامل الفطري في الإنسان في حب المال والتفتير فيه، غذت عوامل أخرى أحاطت بالبلاء في العصر العباسي هذه الخصلة، كظهور طبقات التجار والأغنياء، وتعدد الأعراق والمذاهب، والفجوة بين الأغنياء والفقراء، وغيرها.
- بينت الدراسة أن كثيرا من الشعر الذي تناول البخل سلك فيه الشعراء مسلك السخرية في نقدهم للبلاء، فكان البخل مادة الشعراء في السخرية منهم، ووجد فيها الشاعر ملاذا للترويح عن النفس وآلامها، ووسيلة لإضحاك الآخرين.
- كشفت الدراسة أن لاختلاف الأعراق والأجناس التي سكنت بغداد وما حولها من الأمصار دورا جليا في كثرة الأشعار التي تناولت البخل، وبان أن تصارع الملل والنحل، وانقسام الأهواء إلى عباسية وعربية، وسنية ومعتزلة، وظهور الشعوبية، قاد إلى مثل هذا النوع من الهجاء في المثالب الخلقية.

- أظهرت الدراسة مقدرة فائقة عند الشعراء العباسيين في رسم صورة البخيل، والتوسع في تفاصيلها ودقاتها، فظهر البخيل مقترا على خبزه، حريصا عليه، يذود عنه ويحرسه، وبانت موآدهم فارغة إلا من نزر قليل من الطعام، وأضحت قدورهم بيضاء من قلة الاستخدام، وحجارتها متناهية في الصغر.
- عرضت الدراسة لنماذج من الشعر الذي تناول صورة بخيل المال، وكشفت هذه الصور عن تعظيم البعض للمال في زمانهم، وعده معيارا لقيمة الإنسان، فظهر بخيل المال قفلا مناعا، يخزن أمواله في خزائن محروسة بالجنود والسلاح، يقتر بها على المحتاجين. وعرضت صوراً متنوعة للبخيل عند استقباله ضيوفه وقراهم، فبيته محروس بالحجاب القساة، وهو شحيح في تقديم طعامه وشرابه، وعرضت صورة الهدايا التي يهديها هؤلاء البخلاء لغيرهم، حيث جاءت هداياهم من الحيوانات كالخروف والشاة والحمار هزيلة ضعيفة، ومن الملابس والأحذية بالية قديمة.
- كشفت الدراسة قدرة الشعراء العباسيين على الدخول في أعماق نفسية البخيل، وكشف خفاياها، وإظهار المشاعر التي تنتاب البخيل عند البذل والقرى، واستشفاف الحركات النفسية المختلفة التي تلابس البخل، وملاحظة تلك الدخائل التي تداخل نفس صاحبها وبيانها وفضحها.
- عرضت الدراسة للفئات الاجتماعية المختلفة لبخلاء العصر العباسي، ومنهم الأقارب، والأصدقاء، والشعراء، والعلماء، وعامة الناس، والقادة والمسؤولون والأثرياء، وأظهرت الدراسة كثرة واضحة في الأشعار التي تتعرض للفئة الأخيرة؛ لكونهم أهل الثروة والنعم.

- كشفت الدراسة أثر المكان في مثل هذا الشعر، وظهر أن بغداد فاقت غيرها من الأمصار في مثل هذا النوع من الشعر، فهي مقصد الشعراء، وموطن الثراء، وملاذ التجار، ومجمع الأعراق والأجناس.
- وفتت الدراسة على بنية النصوص الشعرية التي تناولت البخل، وظهر من خلالها نفور الشعراء من المقدمة التقليدية، ونظمهم للمقطعات القصيرة التي تناسب هذا الموضوع الاجتماعي الغنائي، وبيان أن معظم هذه المقطعات حملت غرضاً واحداً، وهو ذم البخلاء والسخرية منهم، ونقدتهم وتحقيرهم.
- ألقت طبيعة العصر والظروف الحيائية بظلالها على لغة الشعر الذي تناول البخل، فانتسبت بالسهولة والوضوح، وابتعدت عن الوحشي والغريب والغموض، وكثر في هذه الفترة استخدام الشعراء للألفاظ الشعبية؛ كي يجعلوا شعرهم أكثر ألفة، وأوفر حظاً من نيل القلوب، ولم يتورعوا عن استخدام ألفاظ فاحشة، أو غير عربية في هجاء البخلاء.
- لجأ كثير من الشعراء الذين تعرضوا لموضوع البخل إلى السرد القصصي، وقد ظهر من خلال الدراسة أن أكثر الشعر الذي استطاع أن يصف البخل والبخلاء جاء ضمن قصة أو حكاية، وهو ما يسهم في تشويق القارئ وجذب انتباهه والوصول للغرض.
- وظف الشعراء النصوص الدينية، والأدبية، والأمثال، والمعتقدات، والعادات الاجتماعية، والأساطير، وألفاظ البيئات الكلامية، للتدليل على المعنى المراد، وتقريبه إلى الذهن، وهو كشف صور البخلاء وأساليبهم، والسخرية منهم.
- كان لبعض المحسنات البديعية حضور بارز في الشعر الذي تناول البخل، كالجناس والطباق والتصريع والتقسيم والتضمين؛ وذلك لمناسبتها هذا المضمون، وهو ما أسهم

في تشويق القارئ، وجعل صورة البخيل أكثر وضوحا وساعد في الكشف عن نفسية البخيل وبيان صفات النقص فيه.

- كشفت الدراسة عن ميل كثير من الشعراء الذين نظموا في البخل إلى استخدام الأوزان الخفيفة والمجزوءة، وإحياء لبعض الأوزان المهملة التي تناسب الحياة الاجتماعية الجديدة، كالمجتث والمضارع والمقتضب وميلهم إلى القوافي الذلل والقوافي المقيدة؛ لمناسبتها لغرض الغناء.

- كان لطبيعة الحياة الاجتماعية في العصر العباسي أثره في إثراء النص الشعري بصور وتشبيهات واستعارات، وقد أحسن شعراء هذا العصر في وصف مظاهر البخل وأساليبهم، وازدانت قصائدهم بصور جديدة أمتعت القارئ وشدت انتباهه، وأسهمت في النفور من البخل وأهله، فجاءت هذه الصور لوحات فنية ساخرة.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- القرآن الكريم.
- الأبيشي، شهاب الدين محمد: **المستطرف في كل فنّ مستطرف**، تحقيق مفيد قميحة، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، 1986.
- الأصبهاني، الراغب: **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعر والشعراء**، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1980.
- الأصفهاني، أبو الفرج: **الأغاني**، شرح علي مهنا، ط2، بيروت، دار الفكر، (د.ت).
- الأعشى، ميمون: **الديوان**، شرح وتعليق محمد حسين، القاهرة، مكتبة الآداب، 1950.
- البحتري، الوليد: **ديوان البحتري**، بيروت، دار صادر، 1955.
- البخاري، محمد: **صحيح البخاري**، تحقيق مصطفى ديب، ط3، بيروت، دار ابن كثير، 1987.
- ابن برد، بشار: **الديوان**، شرح وتقديم مهدي ناصر الدين، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993.
- البرمكي، جحظة: **ديوان جحظة البرمكي**، تحقيق جان توما، ط1، بيروت، دار صادر، 1996.
- البغدادي، أحمد بن علي:
- **البخلاء**، تحقيق أحمد فريد المزيدي، ط1، 1964، بيروت، دار الكتب العلمية، 1964.

- تاريخ بغداد، القاهرة، مطبعة السعادة، 1931.
- البغدادي، عبد القادر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط4، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1997.
- التبريزي، محمد بن علي:
- شرح ديوان أبي تمام، تقديم راجي الأسمر، ط2، بيروت، دار الكتاب العربي، 1994.
- مشكاة المصابيح، تحقيق محمد الألباني، ط3، بيروت، المكتبة الإسلامية، 1985.
- الترمذي، محمد: سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاکر وآخرين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (د.ت).
- التوحيدي، أبو حيان:
- البصائر والذخائر، تحقيق إبراهيم الكيلاني، ط1، دمشق، مكتبة أطلس، 1964.
- الصداقة والصدق، شرح وتعليق علي صلاح، القاهرة، المطبعة النموذجية.
- الثعالبي، عبد الملك: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، 1985.
- الجاحظ، عمرو بن بحر:
- البخلاء، تحقيق محمد التونجي، ط1، بيروت، دار الجيل، 1993.
- البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، دار صعب، 1868.
- الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، 1996.

- رسائل الجاحظ (الرسائل السياسية) تقديم وشرح علي أبو ملح، ط1، بيروت، دار وكتبة الهلال، 1987.
- ابن الجراح، محمد بن داود: الورقة، تحقيق عبد الوهاب العزام وعبد الستار فراج، ط3، دمشق، دار المعارف، 1986.
- ابن أبي الحديد، عبد الحميد: شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل، بيروت، دار الكاتب العربي، 1959.
- الحصري، إبراهيم بن علي:
- جمع الجواهر في الملح والنوادر، تحقيق علي البجاوي، ط2، بيروت، دار الجيل، 1987.
- زهر الآداب وثمر الألباب، شرح زكي مبارك، ط4، بيروت، دار الجيل، 1972.
- الحموي، ياقوت: معجم الأدباء، بيروت، دار الكتب العلمية، 1991.
- الخزاعي، دعل بن علي: الديوان، صنعه عبد الكريم الأشقر، ط2، دمشق، مجمع اللغة العربية، 1983.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1971.
- ديك الجن، عبد السلام الكلبى: الديوان، تحقيق أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري، بيروت، دار الثقافة، 1985.
- الدينوري، عبد الله بن قتيبة: عيون الأخبار، بيروت، دار الكتب العلمية، 1986.

- الذهبي، شمس الدين محمد: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1990.
- ابن الرومي، علي بن عباس: ديوان ابن الرومي، شرح أحمد بسج، ط1، بيروت، دار الكتب العالمية، 1994.
- الزبيدي، محب الدين: تاج العروس، تحقيق علي سيرى، بيروت، دار الفكر، 1994.
- أبو سلمى، زهير: الديوان، تحقيق وشرح كرم البستاني، بيروت، مكتبة صادر، 1953.
- الشافعي، محمد بن إدريس: ديوان الإمام الشافعي، جمع وتعليق محمد الزعبي، ط3، بيروت، دار الجيل، 1974.
- الشريشي، أحمد: شرح مقامات الحريري، تحقيق محمد أبو إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، 1992.
- الصفدي، صلاح الدين: الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنؤوط، وتركي مصطفى، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 2000.
- الصولي، محمد بن يحيى: أدب الكتاب، تصحيح وتعليق: محمد بهجة، ط1، بغداد، المكتبة العربية.
- طالب، علي: ديوان علي بن أبي طالب، شرح عبد الرحمن المصطاوي، ط1، بيروت، دار المعرفة، 2003.
- العباسي، بدر الدين: معاهد التنصيص، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة، 1947.
- ابن العبد، طرفة: الديوان، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، دار صعب، 1980.

- العبدلكاني، عبد الله بن محمد: **حماسة الظرفاء**، تحقيق جبار المعبيد، ط1، بغداد، منشورات وزارة الإعلام، 1973.
- أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم: **الديوان**، بيروت، دار بيروت، 1986.
- العسقلاني، أحمد بن حجر، **تهذيب التهذيب**، اعتناء إبراهيم الزبيق وعادل مرشد، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1995.
- العسكري، الحسن: **الصناعتين**، تحقيق علي البحاوي ومحمد إبراهيم، ط2، القاهرة، مكتبة عيسى الباب الحلبي، 1971.
- العكبري، أبو البقاء: **التبيان في شرح الديوان**، ضبط وتصحيح مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، الطبعة الأخيرة، بيروت، دار الفكر، 1979.
- أبو العيناء، محمد بن القاسم، **ديوان أبي العيناء ونوادره**، تحقيق أنطوان القوال، بيروت، دار صادر، 1993.
- القرطبي، يوسف بن عبد الله: **بهجة المجالس**، تحقيق محمد مرسي، ط2، بيروت دار الكتب العلمية، 1981.
- القزويني، جلال الدين: **الإيضاح في علوم البلاغة**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1975.
- القطامي، عمير: **ديوان القطامي**، تحقيق إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، ط1، بيروت، دار الثقافة، 1960.
- الكتبي، محمد بن شاعر: **فوات الوفيات**، تحقيق إحسان عباس، ط1، بيروت، دار صادر، 1973.
- المبرد، محمد بن يزيد: **الكامل في اللغة والأدب**، بيروت، مكتبة المعارف، 1979.

- المسعودي، علي بن الحسين: **مروج الذهب ومعادن الجواهر**، تحقيق محمد محيي الدين، ط4، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، 1965.
- ابن المعتز، عبد الله: **الطبقات**، تحقيق صلاح الدين الهواري، ط1، بيروت، دار ومكتبة الهلال، 2002.
- ابن منظور، جمال الدين: **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، 1955.
- ابن منقذ، أسامة: **البديع في نقد الشعر**، تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد، مكتبة مصطفى الحلبي، 1960.
- أبو نواس، الحسن بن هانئ: **الديوان**، شرح وضبط علي فاعور، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987.
- النويري، شهاب الدين أحمد: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1986.
- النيسابوري، أحمد بن محمد: **مجمع الأمثال**، تحقيق محمد محيي الدين، ط1، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، 1955.
- الوليد، مسلم: **الديوان**، تحقيق وشرح سامي الدهان، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1970.
- www.mbc.net/Portal/site

ثانيا: المراجع

- إبراهيم، وليد عبد المجيد: الشعر الهزلي العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، عمان، الوراق، 2001.
- الجوارى، أحمد عبد الستار، الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط2، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1991.
- جيدة، عبد الحميد: الهجاء عند ابن الرومي، بيروت، المكتب العالمي، 1974.
- خريس، حسين: حركة الشعر العباسي في مجال التجديد بين أبي نواس ومعاصريه، ط1، بيروت، الرسالة، 1994.
- خليف، يوسف: حياة الشعر في الكوفة في نهاية القرن الثاني الهجري، ط1، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1969.
- سلطان، منير: العدول في شعر ابن هرمة، الإسكندرية، منشأة المعارف، 2007.
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط15، بيروت، دار العلم للملايين، 2002.
- الشكعة، مصطفى: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب الشعر، ط2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1974.
- شلبي، سعد إسماعيل: الشعر العباسي التيار الشعبي، الفجالة، مكتبة غريب، (د.ت).
- ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1975.
- عطوان، حسين: الشعراء من مخزومي الدولتين الأموية والعباسية، بيوت، دار الجيل، 1974.
- العلاف، حسين: الشعراء الكتاب في العراق في القرن الثالث الهجري، ط1، بيروت، الأعلمي، 1975.

- فروخ، عمر: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسية، ط3، بيروت، دار العلم للملايين، 1980.
- القحطاني، عبد المحسن فراج: منصور بن إسماعيل الفقيه حياته وشعره، ط2، بيروت، دار القلم، 1981.
- مطاوع، وفاء: الموروث الشعبي في التراث الشعري في العصر العباسي الأول، الإسكندرية، منشأة المعارف، 2009.
- المعبيد: محمد جبار، شعراء بصريون من القرن الثالث الهجري، بغداد، مركز دراسات الخليج العربي، 1977.
- النجار، إبراهيم: شعراء عباسيون منسيون، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1997.
- هدارة، محمد مصطفى:
- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1977.
- اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، ط1، القاهرة، دار المعارف، 1963.

**National University
Faculty of Graduate Studies**

**Misery in the Abbasi Poetry in the second and the
third Hijri Century**

**Prepared By
Jamal A- Al-Fattah Khalil Sawwi**

**Supervised by
Dr. Abd El-Khaleq A'esa**

*This thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for
the Degree of Master of Arabic Language & Literature, Faculty of
Graduate Studies, An-Najah National University, Nablus, Palestine.*

2011

Stinginess in the Abbasid Poetry in the Second and Third Hijri Centuries

Prepared by:

Jamal Abdulfattah Khaleel Sewwi

Supervised by:

Dr. Abdulkhaleq Issa

Abstract

This study is about stinginess in the Abbasid poetry in the second and third Hijri centuries, and it's considered as one of those seminars which deal with a phenomenon which spread in those two centuries. This phenomenon was clearly present in their poetry.

This study is considered as a helpful reference for the scholar of this subject regarding the literary material that it contains. It has followed the integral method as it investigates the poetical material and collecting it from its various sources, then describing and analyzing it objectively and artistically. It consists of an introduction, preface and three chapters.

In the preface, I reviewed the presence of stinginess in the previous literary eras and the aspects of alienating it in the Quran and Sunna. I also showed the reasons of stinginess and its spread in those two centuries.

The first chapter presents the picture which the Abbasid poets depicted for stingy people and their tools in all their forms such as those who were stingy regarding food, money, hospitality, reception and gifts.

The second chapter presents the surrounding dimensions which affected stinginess and the poetry about it such as the psychological, social and local dimensions.

The last chapter is about the study of the artistic features of this kind of poetry.